جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

دقائق الأسرار في صيغتي الأذان والإقامة

The subtle secrets of the text of Adhan and Iqamah

إعداد

محمود شعبان محمد حميدة

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالقاهرة،

جامعة الأزهر

(العدد الرابع والأربعون)

(الإصدار الرابع-نوفمبر)

(الجزء الثاني (١٤٤٧هـ /٢٠٢٥م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٥/٦٢٧١م

دقائق الأسرار في صيغتي الأذان والإقامة

محمود شعبان محمد حميدة

قسم البلاغة والنقد ، كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر

البريد الإلكتروني : *Abuhafseg22@gmail.com*

الملخص:

يقوم هذا البحث على النظرة البلاغية في صيغتي الأذان والإقامة؛ لبيان معانيهما، والوقوف على ما تقرره هاتان الصيغتان من حقائق، حتى نفهم مقصود الشرع بهما، فتترسخ معانيهما وحقائقهما في نفوس المسلمين .

إن كثيرًا من المسلمين حسبوا أن الأذانَ آلةُ تنبيهٍ بدخول الوقت لا يدركون مضامينه، ولا يفقهون أنه دعوةٌ تامةٌ؛ لذا فإنهم لا يعظمونه كما عظمه رسول الله ﷺ بقوله بعده: "اللهم رب هذه الدعوة التامة" بيانًا لفقهه ما فيه من معانٍ؛ هذا وإن كان فئامٌ من المسلمين يجهلون ما في الأذان من مضامين، فإن أكثر منهم من يجهل ما في الإقامة من معانٍ وحقائق .

لما سبق كان لزامًا علينا أن نقف مع الصيغتين نتبصر معانيهما، ونتأمل تراكيبهما؛ لنبرز حقائقهما العقدية والشرعية للأمة حتى نعظم شعائر الله، ونعلي دعوته في نفوسنا . إن جعل هذه الكلمات شعار المسلمين الأول، ودعوة لأعظم العبادات، يستدعي النظر الجاد، وطول التأمل حتى نبين عن وجوه اصطفائها، ووجوه مناسبتها، وترتيبها، وآليات الإقناع فيها.

هذا، وقد حاول البحث ـ متكئًا على المنهج التحليلي الكلي ـ الوقوف مع صيغتي الأذان والإقامة بالتحليل العميق؛ ليستجلي خفي أسرارهما، ومعانيهما، فكان أن خلص البحث إلى أن الأذان ذكرٌ يحمل كثيرًا من مضامين الإسلام، ولا تقتصر رسالته على المسلم المصلي فقط، بل إنه يحمل رسالة إلى المسلم وغيره، وإلى المصلي وغيره، وأوصى البحث بوجوب الوقوف بالدرس البلاغي عند عبادات المسلمين القولية.

الكلمات المفتاحية: الأسرار، الأذان، الإقامة، المؤذن، الحوقلة، الصلاة، الفلاح.

The subtle secrets of the text of Adhan and Iqamah

Maḥmūd Sha'ban Muḥammad Ḥimīdah

Assistant Professor of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic language, al-Azhar University

Email: *Abuhafseg22@gmail.com*

Abstract:

This paper presents a rhetorical study of the Islamic call to prayer (Adhan and Iqamah). It interprets their meanings, shows their facts in order to simplify their significance, which in turn would root their truth and sense in the minds of Muslims.

Many of the believers think that Adhan is merely an alarm to prayer's times. They ignore the deep messages behind the words, they do not understand that it is a perfect call. So they do not share the profit's glorification of the Adhan that made Him says after it "Oh Allah, Lord of this perfect call". This prophetic expression reflects a great understanding of the Adhan's meanings. Even more Muslims are ignorant about the Iqamah meanings and facts .

Therefore, it is necessary to study these two calls; i.e., Adhan and Iqamah, to look at their meanings, their textual significance because this should lead us to glorify the symbols of Allah .

The fact that the words of Adhan and Iqamah are the first motto and flag of Muslims entices our deep and serious thinking and comprehension to find out their wisdom, proportionality, and convincement .

This study follows the integrative-analytical approach to discuss the texts of Adhan and Iqamah and discover their secrets .

Key words: *Secrets ،Call prayer ،Iqamah ،caller to prayer ،prayer ، success.*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن الأذان هو أكثر ما يطرق سمع المسلم؛ إذ إنه يردد على سمعه خمس مرات في اليوم والليلة، وأكثر ما يجري على لسانه كذلك؛ لأنه مأمور بأن يقول مثلما يقول المؤذن، حتى أصبح كل مسلم يحفظه، فالأطفال في سنوات عمرهم الأولى في كل بقاع الأرض، يحفظونه، ويعرفون معاني ألفاظه اللغوية، ويدركون مقصوده، ويعلمون أوقاته، فهو أوسع شعائر المسلمين ذيوعًا وانتشارًا، وأمكن ما يكون في أذهان الخاصة والعامة حفظًا، إلا أنه مع كل هذا الذيوع والحفظ، فإن معانيه التي تتولد من تراكيبه تخفى، ومضامينه التي ينادي بها تعزب، وحقائقه التي يريد تقريرها في نفوس العامة والخاصة تخفت.

إن جهل المسلمين بمعاني الأذان، وعدم إدراكهم لمقصوده جعلهم يسمعونه إعلامًا بالصلاة فحسب، فنزل من نفوسهم منزلة الراية تنصب لأمر، أو الناقوس، أو البوق، ففقد تأثيره فيهم، ولو أن المسلمين فقهوا ما فيه لعظموه، ورددوه، وأقبلوا عليه ملبين دعوته، وعلموا أن تعظيمه من تقوى القلوب، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

إن الأذان شعار المسلمين الأول، وأداة إعلامهم بأوقات صلاتهم، وأعظم عباداتهم، وأوجبها على كل مسلم؛ لذا فإنه يحمل في طياته أركان الإسلام، وأسس التوحيد، وآليات الإقناع...فهل الأذان يحمل كل هذا؟! هذا ما يسعى إلى بيانه هذا البحث.

إن الأذان هو القول الذي وصفه النبي ﷺ بأنه دعوة تامة، ربها هو الله، بقوله بعده: "اللهم رب هذه الدعوة التامة"، ولا يقف بنا على حقيقة هذين الوصفين العظيمين بما يومئان إليه من اشتمال الأذان على خفي الأسرار، وعميق المعاني، ولطائف الإشارات، واكتنافه دعوة تامة، الداعي إليها هو الله إلا البحث البلاغي؛ لذا وجب علينا

الوقوف معه لتجلية أسراره، وكشف كوامنه، وإحياء حقائقه، وبعث رسالته في نفوس المسلمين؛ فإذا كانت إقامة شعيرة الأذان حافظت على حفظه وذيوعه؛ فإن الدرس البلاغي هو الأقدر على بيان معانيه، ومضامينه، وحقائقه؛ إذ إنه هو الذي يفتق أكمام العبارات، ويستبطن دفائن التراكيب، ويفقه معاني الحروف، واصطفاء الكلمات، ويتسمع همس التناسب بين المعاني، ويلحظ تماسك النص، وآليات الإقناع فيه، فإذا عاد المسلم بعد معرفة ذلك لسماع الأذان سمعه بقلبه، وعقله، وأصبح الأذان عنده حقائق عقدية وشرعية يذكره بها الأذان، لا آلة تنبيه فحسب.

إنني أرى أن من واجبات الدرس البلاغي ـ وهذا سبب اختياري للموضوع ـ الوقوف مع شعائر المسلمين وعباداتهم القولية لتجلية أسرارها، حتى يفهم المسلمون حقيقة ما يقولون، فتؤدي هذه العبادات دورها في صقل النفس وتهذيبها، والسمو بالوجدان، وربط المسلم بخالقه، بعد أن أصبحت العبادات تجري على ألسنتهم ذكرًا أجوف، لا تحس حلاوته الألسنة، ولا تتأثر به القلوب، ومن هذه الرؤية كان بحثي عن: (الأسرار البلاغية في صيغة التشهد)، واليوم أشفعه ببحث عن: (دقائق الأسرار في صيغتي الأذان والإقامة)، وسيتبعهما غيرهما ـ إن شاء الله ـ لطائفة أخرى من العبادات القولية؛ ترسيخًا لقيمها ومعانيها في نفوس المسلمين، ساعتها سيكون للدرس البلاغي أثر عظيم في البلاغ عن الله، ودور عظيم في ترسيخ القيم في المجتمع.

إن هدف هذا البحث هو الوقوف على دقائق أسرار صيغتي الأذان والإقامة، وبعث معانيهما في النفوس، حتى تعظم في نفس المسلم، فيلبي دعوتهما قولًا وعملًا، ويتعبد بهما لله رب العالمين.

وسيقوم البحث على النظر في كل ما يتعلق بالأذان عبادة، ووقتًا، وإجابة، وإقامة، وتناسبًا، ومناسبة للنداء للصلاة، واستمالة للسامع، وتماسكًا، وبيانًا لأسرار اصطفاء كلماته وتراكيبه، ووجوه تعلقها ببعض، اعتمادًا على رواية سنن أبي داود لحديث الأذان والإقامة؛ لأنه أكمل الروايات وأجمعها، وبه العمل.

هذا وقد وقف على الأذان بالدراسة الإمام البقاعي بكتاب: الإيذان بفتح أسرار التشهد

والأذان، تناول فيه التشهد والأذان بإيجاز شديد، ومحمد عز توفيق، بمقال في مجلة البيان تحت عنوان: تأملات في معاني كلمات الأذان، وهو مقال ليس دراسة متسعة تستوعب كل أسرار الأذان، غير أنني قد أفدت منهما، وبنيت على ما جاء فيهما، ولم أقف على بحث بلاغي يعالج صيغتي الأذان والإقامة على هذا النحو من العمومية والشمول.

ونظرًا لطبيعة البحث اتبعت المنهج التحليلي الكلي الذي يقف مع هذه الشعيرة العظيمة، وهذا الذكر الشريف بالتحليل له للوقوف على أسراره ودقائقه.

وقد اقتضت طبيعةُ البحثِ أن يرد في: مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وثلاثة مباحثَ، وخاتمةٍ، وثَبَتِ المصادرِ والمراجعِ، وفهرسِ الموضوعات.

المقدمة: بينت فيها سببَ اختيار الموضوع، وأهميةَ دراستِه، وغايتَه، ومنهجَ الدراسةِ، وخطةَ البحثِ.

التمهيد: تعريف بالأذان لغة واصطلاحًا، وبيان مقصده، وفضله، وتعريف بالإقامة، وبيان مقصدها، وقُسِّمَ البحثُ ثلاثة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: دقائق الأسرار في صيغة الأذان، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: التحليل البلاغي لصيغة الأذان.

المطلب الثاني: التحليل البلاغي لصيغة ترديد الأذان.

المبحث الثاني: دقائق الأسرار في صيغة الإقامة.

المبحث الثالث: الظواهر البلاغية في صيغتي الأذان والإقامة.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وثبت المصادر والمراجع، **وفهرس الموضوعات**.

وأسأل الله أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يغفر لي ما فيه من سهو وزلل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

تمهيد

معنى الأذان:

الأذان في اللغة: الإعلام، قال ابن منظور: "وأَذَّنْتُ: أَكْثَرْتُ الإِعْلامَ بِالشَّيْءِ. والأَذانُ: الإِعْلامُ. وآذَنْتُكَ بِالشَّيْءِ: أَعْلمتُكه. وآذَنْتُه: أَعْلَمتُه"(١). قال تعالى﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٣]؛ أي إعلام، وقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]؛ أي: أعلمهم به. يُقَالُ: أَذَّنَ بِالشَّيْءِ يؤذن أَذَانًا وَتَأْذِينًا وَأَذِينًا كعليم إذا أَعْلَمَ به، فهو اسم وضع موضع المصدر، وأصله من الأُذُن، وهو الاستماع؛ لأنه يُلقي في آذان الناس ما يُعْلِمهم به(٢).

شرعًا: "الْإِعْلَامُ بِدُخُولِ وَقْتِ الصَّلَاةِ بِأَلْفَاظٍ مَخْصُوصَةٍ عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ"(٣).

قوله: (الإعلام بدخول وقت الصلاة)، بيان لمقصود الأذان، فإن قيل به في غير وقت الصلاة لا يسمى أذانًا، فلا يصح الأذان قبل دخول الوقت؛ لأنه إعلام بدخوله، فقبل الوقت لا يحصل به المقصود، و(أل) في الصلاة للعهد العلمي؛ لأن المراد بها الإشارة إلى شيء من أفراد الحقيقة، ولم يسبق لها ذكر صريحٌ، ولا كنائيٌّ، ولكن المخاطب له علم بها؛ أي صلاة الفريضة المنادى لها، فيكون الأذان للإعلام بدخول وقت الصلاة المفروضة، فلا أذان لصلاة نافلة، فلا يؤذن لصلاة العيد، ولا لصلاة الاستسقاء، والكسوف، والخسوف، والجنازة، والتراويح، وكل نفل شرعت فيه الجماعة، بل جاء عند الفقهاء: يكره الأذان لغير المكتوبة(٤).

كما يشير قوله: (الإعلام بدخول وقت الصلاة) إلى أن الأذان يكون للفريضة عند دخول وقتها، فإذا فات وقتها، فإنه لا يؤذن لها، فعن الشافعي والإمام أحمد ـ رضي الله عنهما: "ويقيم للفائتة المفروضة من يريد فعلها؛ لأنها لافتتاح الصلاة وهو موجود، ولا

---

(١) لسان العرب، مادة: أذن.

(٢) ينظر: مطالب أولي النهى، ١/ ٢٨٤.

(٣) شرح مختصر خليل، للخراشي، ٣/ ١٠٧.

(٤) ينظر: نهاية المحتاج، ١/ ٤٠٣.

يؤذن لها في الجديد لزوال وقتها، وقد فاته ﷺ صلوات يوم الخندق فقضاها، ولم يؤذن لها. رواه الشافعي وأحمد في مسنديهما بإسناد صحيح. قاله في المجموع"[1].

قوله: (بألفاظ مخصوصة) معنى ذلك: أنه لا يستعاض عنها بغيرها، وما يكون بغيرها من إشارات وعلامات للتنبيه على دخول وقت الصلاة لا يسمى أذانًا.

قوله: (على وجه مخصوص) يشير إلى أن الأذان يؤدى على هذا النحو الذي جاء في السنة دون زيادة أو نقصان، أو خلل في ترتيبه، أو فصل بين أجزائه، وبصوت عالٍ حتى يصل إلى أبعد مدى، ندي حتى ينصت له السامعون، فيؤدي مقصوده فيهم من التأثير.

وسمي بالأذان: لأنه يُعْلِمُ بدخول الوقتِ، وفي تسميته بالأذان وهو مشتق من مادة الأُذُن ما يشير إلى أنه سيصل إلى آذان الناس، ويسمعونه سماعًا واضحًا تامًّا، وكأن هذه الكلمات التي ينادى بها للصلاة أُفرغت في آذانهم، وصبت فيها صبًّا.

وسمي بالنداء: النداء: رفع الصوت المجرد؛ أَي لا يَعْرِفُ إلا الصَّوت المجرَّد دُونَ المَعْنى الذي يَقْتَضِيه تَرْتِيبُ الكَلامِ[2]، فالدعاء بأرفع الصوت نداء، وسمي الأذان بالنداء؛ لأن المؤذن ينادي للصلاة بصوت مرتفع، بقوله: (حي على الصلاة، حي على الفلاح).

الفرق بين النداء والأذان: "أن لفظ الأذان أو التأذين أخص من لفظ النداء لغة وشرعًا"[3].

حكم الأذان:

إن الأذانُ ثابتٌ بنص القرآن الكريم، ومن حقوق الصلاة التي أوجبها الشرع، قال عزَّ

---

(١) نهاية المحتاج، ١/ ٤٠٥.

(٢) ينظر: تاج العروس، ٤٠/ ٥٨.

(٣) شرح أبي داود، للعيني، ٢/ ٤٧٨.

وجلَّ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨]، وقال جلَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩]، فدلت الآيتان على أن للصلاة نداءً، وهو الأذان، فهي أصل فيه، فعند الزمخشري: "فيه دليل على ثبوت الأذان بنصّ الكتاب"(١)، قال الشهاب الخفاجي: "وفي الكشاف (فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب)؛ لأنه لما دلَّ على أنّ اتخاذ المناداة هزوًا من منكرات الشرع دلَّ على أنّ المناداة من حقوقه المشروعة له"(٢).

فالأذان شعار الإسلام، وحكمه الوجوب بعد دخول وقت الصلاة، وعند الخطابي: لا يجوز تركه، ولو أن أهل بلد اجتمعوا على تركه كان للسلطان قتالهم عليه(٣)، فكأن الأذان علامة على الإسلام، وآية الدخول فيه، والتمسك به، وفي هذا دليل على أنه شعيرة لا يجوز تعطيلها، وقد كان من أمر المسلمين معه كذلك أنهم إذا سمعوه كفوا عن الغزو، وإن لم يسمعوه قاتلوا.

إن الأذان من أعظم شعائر الإسلام، وأشهر معالم الدين؛ لذا فإن رسول الله ﷺ ومن بعده المؤمنون لم يعطلوا هذه الشعيرة منذ شروعها إلى اليوم لا في سفر ولا حضر، ولا رخص لهم رسول الله ﷺ في تركها أو الإخلال بها، ولم يثبت عن المسلمين أنهم تركوها، أو أخلوا بها، بل كانت منهم له ملازمة عظيمة، دائمة مستمرة.

واستنبط العلماء من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] وجوب الأذان، إن دخل فيها المؤذنون، وأكثر الفقهاء على أنه ليس واجبًا، قال الرازي: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا، إِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَنَقُولُ: كُلُّ مَا كَانَ أَحْسَنَ الْأَعْمَالِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ وَاجِبًا؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا لَا يَكُونُ وَاجِبًا، فَالْوَاجِبُ أَحْسَنُ منه، فثبت أن

(١) الكشاف، ١/ ٦٥٠.

(٢) حاشية الشهاب الخفاجي، ٣/ ٢٥٧.

(٣) ينظر: فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٩٠.

كلَّ ما كانَ أحسن الأعمال فهو واجب، إِذَا عَرَفْتَ هَذَا، فَنَقُولُ: الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ أَحْسَنُ الْأَعْمَالِ بِمُقْتَضَى هَذِهِ الْآيَةِ، وَكُلُّ مَا كَانَ أَحْسَنَ الْأَعْمَالِ فَهُوَ وَاجِبٌ، ثُمَّ يَنْتُجُ أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ وَاجِبَةٌ، ثُمَّ نَقُولُ: الْأَذَانُ دَعْوَةٌ إِلَى اللهِ وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ وَاجِبَةٌ، فَيَنْتُجُ الْأَذَانُ وَاجِبٌ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَكْثَرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ زَعَمُوا أَنَّ الْأَذَانَ غَيْرُ وَاجِبٍ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْأَذَانَ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ"[1].

وذكر كثير من أهل التفسير أن هذه الآية عني بها المؤذّن، فالدعوة إلى الله هي الأذان، والعمل الصالح هو أن يُصلي بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ[2].

هذا ما يعطيه ظاهر معنى الآية، لكن الحق المقطوع به أن كل من دعا إلى الله داخل في الآية، والمؤذنون منهم؛ إذ إنهم يدعون إلى أعظم الشعائر عند الله، وهي الصلاة؛ شريطة الإخلاص والصدق، ثم إن دعوتهم إليها تتكرر في اليوم والليلة خمس مرات.

فالمؤذنون يدخلون فيها لما يحمله الأذان من معانٍ في ذاته، لكنه دخول ضعيف؛ لعدم فقههم لما يحمله الأذان من معانٍ، وإذا فقهوا ما فيه، فإنهم لا يريدون به هذه المعاني، قال الرازي: "وَأَمَّا الْمُؤَذِّنُونَ فَهُمْ يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الْبَابِ دُخُولًا ضَعِيفًا، أَمَّا دُخُولُهُمْ فِيهِ؛ فَلِأَنَّ ذِكْرَ كَلِمَاتِ الْأَذَانِ دَعْوَةٌ إِلَى الصَّلَاةِ، فَكَانَ ذَلِكَ دَاخِلًا تَحْتَ الدُّعَاءِ إِلَى اللهِ، وَأَمَّا كَوْنُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ ضَعِيفَةً؛ فَلِأَنَّ الظَّاهِرَ مِنْ حَالِ الْمُؤَذِّنِ أَنَّهُ لَا يُحِيطُ بِمَعَانِي تِلْكَ الْكَلِمَاتِ، وَبِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ مُحِيطًا بِهَا إِلَّا أَنَّهُ لَا يُرِيدُ بِذِكْرِهَا تِلْكَ الْمَعَانِيَ الشَّرِيفَةَ، فَهَذَا هُوَ الْكَلَامُ، فِي مَرَاتِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ"[3].

ويرى ابن كثير أن الآية عامة، فيقول: "والصَّحيح أن الآية عامة في المؤذنين وغيرهم، فَأَمَّا حَالُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْأَذَانُ مَشْرُوعًا بِالْكُلِّيَّةِ؛ لِأَنَّهَا مَكِّيَّةٌ،

(١) مفاتيح الغيب، ٢٧، ٥٦٣.

(٢) ينظر: تفسير الطبري، ٢١/ ٤٦٩.

(٣) مفاتيح الغيب، ٢٧، ٥٦٣.

وَالْأَذَانُ إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة"[١]، ورد بعضهم على هذه الجزئية الأخيرة بقوله: "قوله﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ ؛ أي لا أحد أحسن قولًا ممن دعا إلى الله بالتوحيد...قال في التحفة: ولا ينافيه قول ابن عباس هو النبي ﷺ؛ لأنه الأحسن مطلقًا، وهو الأحسن بعده، ولا كون الآية مكية، والأذان إنما شرع بعد الهجرة في المدينة؛ لأنه لا مانع من أن المكي يشير إلى فضل ما يشرع بعد"[٢].

فضل الأذان:

١ ـ الأذان من شعائر الله التي يجب تعظيمها، وتعظيمه من التقوى، فقد أخبر ـ جلَّ وعلا ـ أن تعظيم شعائره دلالة على تقوى القلوب، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢].

٢ ـ الأذان على وجازته جامع لأمر الدين، فهو كما نقل البقاعي عن الإمام العارف ولي الدين الملوي: "أن السنة عليه توجب تذكر هذه العقائد الإيمانية عند كل أذان، وأنه مذكر بنعمة الله ومنته؛ إذ جمع لهذه الأمة ترجمة دينها في هذه الكلمة الوجيزة"[٣].

٣ ـ الأذان هو الداعي إلى أعظم فرائض المسلمين وشعائرهم، وأجل عباداتهم، وهي الصلاة، والدعوة إلى البقاء الدائم في النعيم بالدعوة إلى الفلاح، فكان فضله مستمدًا من عظيم ما يدعو إليه.

٤ ـ وورود كثير من الأحاديث في فضل الأذان والمؤذنين، منها ما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا»[٤]. متفق عليه.

---

(١) تفسير ابن كثير، ٤/ ١٢٨.

(٢) إعانة الطالبين، ١/ ٢٣٩.

(٣) الإيذان بفتح أسرار التشهد والأذان ، للإمام البقاعي، ص ٦١.

(٤) متفق عليه: البخاري، كتاب: الأذان، باب: الاستهام في الأذان، برقم: ٦١٥، ١/ ١٢٦، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: تسوية الصفوف وإقامتها، برقم: ٤٣٧، ١/ ٣٢٥.

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول أعناقًا يوم القيامة»(١).

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له: «إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك – أو باديتك – فأذّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنّ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة. قال أبو سعيد: سمعتُه من رسول الله ﷺ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المؤذن يغفر له مدى صوته، ويشهد له كل رطب ويابس، وشاهد الصلاة يكتب له خمس وعشرون صلاة، ويكفر عنه ما بينهما»(٣).

بدء مشروعية الأذان:

بعد قدوم المسلمين المدينة أصبحت الدعوة إلى شعائر الإسلام جهرًا، ولم تعد سرًّا يستخفي بها المسلمون كما كانوا بمكة، فأرادوا أن يكون لهم ما يشعرهم بدخول وقت الصلاة؛ إذ لم يكن لهم ما يشعرهم بذلك إلا أن يخبر أحدهم الآخر بدخول الوقت، فتفكروا يومًا في وسيلة تكون أداة إعلام، وآلة تنبيه، فكان الانتهاء إلى النداء لها، وهذا ما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر أنه قال: «كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون، فيتحينون الصلاة ليس يُنادى لها، فتكلموا يومًا في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسًا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقًا مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلًا ينادي بالصلاة، فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فناد بالصلاة»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم، في كتاب: الصلاة، باب: فضل الأذان وهروب الشيطان عند سماعه، برقم: ٣٨٧، ١/ ٢٩٠.

(٢) البخاري، كتاب: الأذان، باب: رفع الصوت بالنداء، برقم: ٦٠٩، ١/ ١٢٥.

(٣) رواه أبو داود وأحمد والنسائي وغيرهم، وهو في صحيح الجامع برقم ١٥٢٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب: الأذان، باب: بدء الأذان، رقم: ٦٠٤، ١/ ١٢٤، وصحيح مسلم، كتاب: الصلاة، باب: بدء الأذان، رقم: ٣٧٧، ١/ ٢٨٥، واللفظ للبخاري، وقد اتفق معه مسلم إلا في قوله: (فيتحينون الصلوات).

وفي الحديث لطائف، منها:

١ . أن بدء مشروعية الأذان كان بعد الهجرة أول قدوم المسلمين المدينة (كان المسلمون حين قدموا المدينة)، ولا يعارض ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨]، وسورة المائدة متأخرة في النزول عن قدومهم بالمدينة؛ إذ إن الآية دليل على مشروعية الأذان، لا على إيجابه وثبوته، قال الشهاب الخفاجي: "وإن كان ابتداء مشروعيته بالسنة كما في قصة عبد الله بن زيد الأنصاري، وما رأى في منامه، وهذا لا ينافي كون مشروعية الأذان أول ما قدموا المدينة، والمائدة متأخر نزولها، ولما كان ثبوته معروفًا جعله المصنف . رحمه الله تعالى . دليلًا على مشروعيته لا على ثبوته؛ فلذا عدل عما في الكشاف، وان كان لا يمتنع اجتماع الأدلة الشرعية على حكم واحد؛ لأنها أمارات لا مؤثرات وموجبات"(١).

٢ . قوله: (يجتمعون) بالتعبير بلفظ الاجتماع؛ الذي يفيد انضمام بعضهم إلى بعض، وصيغة المضارع التي تفيد التجدد والحدوث يدل على أن اجتماع المسلمين للصلاة كان يتجدد ويتكرر مع كل صلاة؛ فقد كان دأبهم وشاغلهم الذي لا يشغلهم عنه سواه، ومن دلالة الجمع في (المسلمون، واو الجماعة في يجتمعون) ما يشير إلى حرص جماعة المسلمين على صلاة الجماعة.

٣ . قوله: (فيتحينون الصلاة ليس يُنادى لها)، قال القاضي عياض: "مَعْنَى يَتَحَيَّنُونَ يُقَدِّرُونَ حِينَهَا لِيَأْتُوا إِلَيْهَا فِيهِ، وَالْحِينُ الْوَقْتُ مِنَ الزَّمَانِ"(٢)، فقوله: (فيتحينون) يشير إلى حرص الصحابة على الصلاة، وعلى إدراكها في أول الوقت، والحديث يشير إلى فضيلة عظمى مكفرة للذنوب، وهي: انتظار الصلاة بعد الصلاة، فقد كان رسول الله ﷺ وصحابته يتحينون؛ أي يقدرون حينها وهم في انتظارها بدلالة (يجتمعون،

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجي، ٣/ ٢٥٧.

(٢) شرح النووي على مسلم، ٤/ ٧٥.

فيتحينون) بترتيب يتحينون على يجتمعون، أما قول القاضي: "يقدرون حينها ليأتوا إليها" فإنه بيان عن عموم المسلمين من كان مجتمعًا ومن كان في بيته.

وقوله: (فيتحينون) يبين أنه ينبغي على المؤذن أن يكون دقيقًا في تحري وقت الأذان، حتى تكون الصلوات على أوقاتها، فالمؤذن مؤتمن على عبادة الناس؛ لارتباط الصلاة والصيام بأذانه، فسبب الأذان هو اهتمام رسول الله بأمر الصلاة، وبحثه عن وسيلة يعلم الناس بها دخول وقت الصلاة.

٤ ـ أظهر الحديث مبدأً عظيمًا من مبادئ الإسلام في قوله: (فتكلموا يومًا في ذلك)، وهو التشاور في أمور المسلمين المهمة، ومراعاة مصالحهم، قال ابن حجر: "وَفِي حَدِيث ابن عُمَرَ دَلِيلٌ...عَلَى مُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ وَالْعَمَلِ بِهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا شَقَّ عَلَيْهِمُ التَّبْكِيرُ إِلَى الصَّلَاةِ فَتَفُوتُهُمْ أَشْغَالُهُمْ، أَوِ التَّأْخِيرُ فَيَفُوتُهُمْ وَقْتُ الصَّلَاةِ نَظَرُوا فِي ذَلِكَ"(١).

٥ ـ كما يشير قوله: (فتكلموا يومًا في ذلك) أن الأمر لم يكن بينهم جدلًا، فلم يكن مثارًا بينهم كل يوم، بل أثاروه يومًا، فلم يكن من عاداتهم الجدل والسفسطة.

٦ ـ قوله: "فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسًا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقًا مثل قرن اليهود"، يشير إلى أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يتحرج أحد منهم أن يخبر بما أدى إليه اجتهاده، فأول قائل قال: "اتخذوا ناقوسًا مثل ناقوس النصارى"، والآخر قال: "بل بوقًا مثل قرن اليهود"، مع ذكرهم المشبه به، وهو مما لا يرضونه لدينهم، ويعلمون كراهية النبي ﷺ لذلك، فقد ربوا على التميز والاستقلال، إلا أنهما فتشا فلم يجدا غير ما قالا، فلهم أجر من اجتهد وأخطأ، كما أن فيه احترامًا لآداب الخلاف؛ إذ لم يسفه أحد من الصحابة رأي القائلين بالناقوس والبوق، بل لم يعلق أحد عليه لبيان خطئه.

---

(١) فتح الباري، ٢/ ٨٢.

٧ ـ قوله: "فقال عمر: أولا تبعثون رجلًا ينادي بالصلاة"، فيه منقبة عظيمة لسيدنا عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لإصابته الحق، وموافقته لما أصبح عليه عمل المسلمين.

٨ ـ يجب على من يعرض رأيًا على المسلمين ألا يلزمهم به ابتداء، بل يعرضه وإن كان عين الصواب في أدب وحياء، وهكذا فعل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه (أولا تبعثون رجلًا ينادي للصلاة).

٩ ـ قَوْلُهُ: (أَوَلَا تَبْعَثُونَ رَجُلًا يُنَادِي بِالصَّلَاةِ) ليس المراد به حينها الأذان بصفته المعروفة المقررة اليوم، قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: "ظَاهِرُهُ أَنَّهُ إِعْلَامٌ لَيْسَ عَلَى صِفَةِ الْأَذَانِ الشَّرْعِيِّ، بَلْ إِخْبَارٌ بِحُضُورِ وَقْتِهَا، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مُحْتَمَلٌ أَوْ مُتَعَيَّنٌ، فَقَدْ صَحَّ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُ رَأَى الْأَذَانَ فِي الْمَنَامِ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُخْبِرُهُ بِهِ، فَجَاءَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ الَّذِي رَأَى، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، فَهَذَا ظَاهِرُهُ أَنَّهُ كَانَ فِي مَجْلِسٍ آخَرَ، فَيَكُونُ الْوَاقِعُ الْإِعْلَامَ أَوَّلًا، ثُمَّ رَأَى عَبْدُ اللهِ بْنُ زَيْدٍ الْأَذَانَ فَشَرَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِمَّا بِوَحْيٍ، وَإِمَّا بِاجْتِهَادِهِ ﷺ"[(١)]، فدليل أن قول عمر ـ ضي الله عنه ـ لم يكن المراد به الأذان المعروف أنه ـ رضي الله عنه ـ لم يكن موجودًا حين قصَّ سيدنا عبد الله بن زيد رؤيا الأذان على رسول الله ﷺ.

١٠ ـ إقرار النبي ﷺ رأي عمر يؤكد إصابته الحق؛ لمخالفته ما جاء عن اليهود والنصارى.

١١ ـ قول النبي ﷺ: (يا بلال قم فناد بالصلاة) يرسخ في المسلمين مبدأ قرآنيًّا هو أنه إذا وصل المسلمون لأمر بعد تشاورهم، فليمضوه، وليغلقوا باب النقاش، امتثالًا لقوله تعالى﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ فلذا أمضى النبي ﷺ مباشرة ما اتفقوا عليه.

---

(١) شرح النووي على مسلم، ٤/ ٧٦.

١٢ ـ لم يقر المسلمون بعد الحوار شيئًا من الناقوس والبوق، لتتميز شرائع الإسلام عن بقية الشرائع، ويبقى لها تفردها.

١٣ ـ كان الأذان قولًا على ما هو عليه الآن لا فعلًا من الصور التي قال بها بعض الصحابة، للحكمة التي أشار إليها ابن حجر بقوله: "سهولة القول، وتيسره لكل أحد في كل زمان ومكان"(١).

صيغة الأذان:

(اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

إن الأذان على كيفيته المخصوصة ارتضاه رسول الله ﷺ ، وتلقاه المسلمون بالقبول، مع أنه لم يكن وحيًا أنزل على رسول الله ﷺ ، وإنما كان رؤيا منامية، وخبره ما رواه أبو داود في سننه عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَبْدُ اللهِ بْنُ زَيْدٍ، قَالَ: "لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاقُوسِ يُعْمَلُ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلنَّاسِ لِجَمْعِ الصَّلَاةِ طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ، فَقُلْتُ: يَا عَبْدَ اللهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟ قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى، قَالَ: فَقَالَ: تَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ، قَالَ: وَتَقُولُ: إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ: (اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ، أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَأَخْبَرْتُهُ، بِمَا

(١) فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٧٧.

رَأَيْتُ، فَقَالَ: «إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ، فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ، فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ»، فَقُمْتُ مَعَ بِلَالٍ، فَجَعَلْتُ أُلْقِيهِ عَلَيْهِ، وَيُؤَذِّنُ بِهِ، قَالَ: فَسَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ، وَيَقُولُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ مَا رَأَى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ"(١).

ويزيد في أذان الفجر بعد حي على الفلاح: (الصلاةُ خيرٌ مِنَ النومِ، الصلاةُ خيرٌ مِنَ النومِ)؛ لحديث أنس رضي الله عنه قال: "من السنة إذا قال المؤذن في الفجر: حيّ على الفلاح، قال: الصلاة خير من النوم"، لقوله صلّى الله عليه وسلم لأبي محذورة . فيما رواه أحمد وأبو داود . «فإن كان صلاة الصبح، قلت: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم»(٢).

وفي الحديث لطائف، منها:

١ . أن الأذان لم يكن وحيًا نزل على رسول الله ﷺ ، أو اقتراحًا من بعض الصحابة، أو اتفاقًا بينهم، وإنما كان رؤيا لعبد الله بن زيد . رضي الله عنه . وأقرها النبي ﷺ بقوله: إنها رؤيا حق؛ فالأذان لم يبن على رؤيا لأحد الصحابة، وإنما كان سنة تقريرية لرسول الله ﷺ.

٢ . الحكمة في ابتداء شرع الأذان على لسان غير النبي ﷺ هي التي أوردها ابن حجر نقلًا عن السهيلي الحكمة في ذلك بقوله: "التَّنْوِيهُ بِعُلُوِّ قَدْرِهِ عَلَى لِسَانِ غَيره ليَكُون أفخم لشأنه"(٣).

كما يحقق ذلك رفع ذكره ﷺ الذي أشار إليه القرآن الكريم، قال العيني: "واقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الأذان على غير لسان النبي لما فيه من التنويه بعبده، والرفع لذكره، فلأن يكون ذلك على لسان غيره أنوه، وأفخر لشأنه، وهو معنى قوله تعالى:

---

(١) سنن أبي داود، كتاب: بدء الأذان، باب: كيف الأذان، رقم: ٤٩٩، ١/ ١٣٥.

(٢) السابق، كتاب: بدء الأذان، باب: كيف الأذان، رقم: ٥٠٠، ١/ ١٣٦.

(٣) فتح الباري، ٢/ ٨٢.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]"[(١)].

٣ ـ قوله: "لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاقُوسِ يُعْمَلُ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلنَّاسِ لِجَمْعِ الصَّلَاةِ" يوهم التعارض مع قوله في الحديث السابق: "فقال عمر: أولا تبعثون رجلًا ينادي بالصلاة، فقال رسول الله ﷺ: يا بلال قم فناد بالصلاة»[(٢)]، إلا أن هذا التعارض يزول بمثل أن يكون سيدنا عبد الله بن زيد ظنَّ ميل رسول الله ﷺ إلى القول بأن يتخذ ناقوسًا مع كراهيته له، مرجحًا له على القول باتخاذ بوق مثل اليهود؛ لرغبته في التميز عن اليهود؛ إذ إنهم يسكنون معه في المدينة، فلو اتخذ شعارهم، مع الصلاة لقبلتهم لزاد قولهم كما قالوا في شأن القبلة، إلى أن زال هذا الترجيح، وانقطع عند قول سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ بأن يبعثوا رجلًا ينادي للصلاة.

٤ ـ قوله: "لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّاقُوسِ يُعْمَلُ لِيُضْرَبَ بِهِ لِلنَّاسِ لِجَمْعِ الصَّلَاةِ طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ"، يشير إلى انشغال المسلمين يقظة ومنامًا بقضايا الأمة ومصالحها، وحملهم لهمومها حتى بعد انصرافهم من مجلس رسول الله ﷺ.

٥ ـ قوله: "فَقُلْتُ: يَا عَبْدَ اللهِ أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟ قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ"، يشير إلى إخلاص الصحابي الجليل في حمل هموم الأمة، وصدقه في ذلك؛ إذ بادر بطلب شراء الناقوس؛ ليقدم شيئًا لرسول الله ﷺ وعموم الأمة، فما بخل بماله منامًا، ولا توانى عن تقديمه لشراء الناقوس، فسلوكه في منامه انعكاس لسلوكه في يقظته، ومما هو مخزون في ضميره وعقله من مكارم وفضائل.

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٥/ ١٠٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب: بدء الأذان، رقم: ٦٠٤، ١/ ١٢٤، وصحيح مسلم، كتاب: الصلاة، باب: بدء الأذان، رقم: ٣٧٧، ١/ ٢٨٥، واللفظ للبخاري، وقد اتفق معه مسلم إلا في قوله: (فيتحينون الصلوات).

٦ ـ قوله: "قَالَ: أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى" فيه إشارة إلى أن الأذان خير من الناقوس، وأن المسلمين كانوا يبحثون عما هو خير من الناقوس والبوق، فلما هدي إليه سيدنا عبد الله في منامه، ودُلَّ عليه، قال على الفور: "بلى" شغفًا وشوقًا إلى معرفته.

٧ ـ قوله: "فَلَمَّا أَصْبَحْتُ، أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَأَخبَرْتُهُ، بِمَا رَأَيْتُ"، دلالة الفاء، والإصباح دون الضحى، والإتيان فور الإصباح دون عطف حتى بالفاء، والإخبار فور الإتيان، كُلُّ ذلك يشيرُ إلى سرعة مبادرة الصحابي الجليل بإخبار رسول الله ﷺ الخبر، وشدة حرصه على إيصال الخير إلى رسول الله ﷺ ومن ثم إلى عموم الأمة.

٨ ـ قوله: "فَأَخبَرْتُهُ، بِمَا رَأَيْتُ" يشير إلى سماحة رسول الله ﷺ مع أصحابه ولينه، وتواضعه معهم، وخفضه الجناح لهم؛ حتى أمنوا جانبه، وعلموا يقينًا أنه ﷺ يقبل منهم، فما تحرجوا حتى من نقل منامهم إليه "فَأَخبَرْتُهُ، بِمَا رَأَيْتُ"؛ ومما يلفت هنا أن صاحب الواقعة، وهو سيدنا عبد الله بن زيد ـ رضي الله عنه ـ ليس هو أبو بكر، أو عمر، أو عثمان، أو عليّ ـ رضي الله عنهم ـ بمكانهم ومكانتهم من رسول الله والمسلمين.

٩ ـ قوله ﷺ: "فَقَالَ: إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللهُ"، يبرز عدالة صحابة رسول الله ﷺ ، وثقته ﷺ فيهم، وقبوله منهم في أكثر شرائع المسلمين ذيوعًا وانتشارًا.

١٠ ـ قوله ﷺ: "إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللهُ" إقرار منه ﷺ بما جاء عن الصحابي الجليل يرفع أي إشكال يرد على أن الأذان لم يكن وحيًا، بل كان رؤيا، ورؤيا غير الأنبياء لا يبنى عليها حكم شرعي، فقوله: "إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ" معناه أنها: "ثابته صحيحة صادقة مطابقة للوحي، أو موافقة للاجتهاد"(١)، فتشريع الأذان ليس برؤيا من حيث هي، ولكن بتقريره ﷺ أن تلك الرؤيا حق، أي: أن ألفاظ الأذان حقٌّ، فيكون مشروعًا، والسبب تلك الرؤيا، ثم التثبيت والتقرير منه ﷺ ، فهذه الرؤيا اكتسبت

(١) عون المعبود، ٢/ ١٢١.

الشرعية من إقرار النبي ﷺ وهو لا يقر على باطل، ومن دلائل هذا أن من جاء برؤيا تخالف ما جاء في النصوص فإنه لا يلتفت إليها، مهما بلغت منزلة رائيها. وقوله: (إن شاء الله) للتبرك أو للتعليق، وأرى أنها للجزم بصدقها بمشيئة الله.

١١ ـ قوله ﷺ: "فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ، فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ"، تظهر قبول رسول الله ﷺ لما تيقن أنه الحق، وعدم طرحه للنقاش، وعزمه على العمل به، والفاء تشير إلى تعجيله بتنفيذ ذلك، وإبرامه، والأوامر الثلاثة المتوالية تحمل معنى الوجوب؛ إلزامًا للقيام بهذا.

١٢ ـ كما تشير هذه الجملة إلى أن أول مؤذن في الإسلام هو سيدنا بلال بن رباح ـ رضي الله عنه.

١٣ ـ قوله ﷺ: "فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ" تعليل من رسول الله ﷺ ، وبيان لأسس اختياره لسيدنا بلال ـ رضي الله عنه ـ، كما يبدو فيها صدقه ﷺ ، وصراحته، ووضوحه، وأنه لا يحابي على حساب الحق، لقد قبل من سيدنا عبد الله بن زيد ما قصه عليه من رؤيا الأذان، لكنه أسند الأمر لمن هو أكفأ منه في هذا الأمر دون محاباة.

١٤ ـ قوله: "فَقُمْتُ مَعَ بِلَالٍ، فَجَعَلْتُ أُلْقِيهِ عَلَيْهِ، وَيُؤَذِّنُ بِهِ"، التعبير بالفاء بما فيها من دلالة على الفور، والفعل الماضي في الموضعين الأولين الذي يفيد تحقق الوقوع، والفعل المضارع (يؤذِّن) بما فيه من دلالة على القيام بالحدث، والضمير في (به) العائد على ما قصه من أذان على رسول الله ﷺ ، كل ذلك دلائل الامتثال من صحابة رسول الله ﷺ لأمره ﷺ ، وتنفيذه كما أمر.

١٥ ـ قوله: "فَقُمْتُ مَعَ بِلَالٍ، فَجَعَلْتُ أُلْقِيهِ عَلَيْهِ، وَيُؤَذِّنُ بِهِ"، فالمعية مع بلال، وإلقاؤه عليه ليؤذن هو به دلائل صفاء صحابة رسول الله ﷺ الذي يمثلهم هنا سيدنا عبد الله بن زيد رضي الله عنه؛ إذ لم يجد في نفسه على سيدنا بلال ـ رضي الله عنه ـ لاختيار رسول الله ﷺ له دونه.

١٦ ـ قوله: (فليؤذن به) أمر يحمل معنى الوجوب؛ أي وجوب الامتثال والالتزام بما تلقيه عليه مما أسمعتني إياه، وما سوى ذلك فهو بدعة محرمة؛ لمخالفته لهدي النبي

ﷺ ، فدل الضمير في (به) على وجوب أداء الأذان على النحو الذي جاء به دون نقصان منه، أو زيادة عليه بأذكار أخرى قبله أو بعده، أو خلل في ترتيبه، أو فصل طويل بين جمله؛ لذا قال النبي ﷺ لعبد الله بن زيد رضي الله عنه: (فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ، فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ، فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ).

١٧. يدل الحديث على مشروعية اختيار الأصوات الندية للأذان؛ ترغيبًا في إمتاع الأسماع به، وجذب الناس إليه؛ حتى يحقق الأذان غايته من ترسيخ حقائقه في نفوس من يسمعه؛ لذا قال النبي ﷺ لعبد الله بن زيد: "فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ"، وتتحقق نداوة الصوت بنطق الأذان نطقًا صحيحًا دون لحن حتى يستقيم به المعنى، ولا يتغير، فلَا يَصِحُّ الأذانُ بغير العربيَّةِ مُطْلَقًا، وكذلك أداؤه دون تمطيط وتغنٍ وخروج عن لحون العرب في نطقها، مما يبدو معه التكلف، فذلك مما يكره، ولما سمع عمر بن عبد العزيز مثل ذلك قال للمؤذن: "أذن أذانًا سمحًا، وإلا فاعتزلنا".

١٨ . لعلَّ النبي ﷺ وجد في بلال . رضي الله عنه . صفات أخرى يتحقق بها مقصود الأذان، لكنه ﷺ لم يصرح بها؛ إذ إنها علمت ممن وقع عليه اختياره □، واكتفى بقوله: (فإنه أندى صوتًا منك)، وهذه الصفات هي إخلاص بلال . رضي الله عنه . لدينه، وصدقه مع ربه، وهاتان صفتان لا تخفيان من سيرة سيدنا بلال . رضي الله عنه . وهي الصفات التي نصَّ عليها الفقهاء بعد ذلك من أنه يُفضل المؤذن الذي لا يتقاضى أجرًا على أذانه حتى يبتغي بأذانه وجه الله، فيخرج الأذان من قلب سليم ممزوجًا بالإخلاص، مرفوعًا بالصدق، فيحقق مقصوده في نفوس السامعين.

١٩. قوله: (فَسَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَهُوَ فِي بَيْتِهِ) يشير إلى أن بلالًا . رضي الله عنه . رفع به صوته حتى سمعه سيدنا عمر . رضي الله عنه . وهو في بيته، وبذا يحقق الأذان مقصوده، وهو الإعلام بدخول وقت الصلاة؛ لذا يجب على المؤذن رفع الصوت به ليسمعه المسلمون.

٢٠ . قوله: "قَالَ: فَسَمِعَ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ يَجُرُّ رِدَاءَهُ"، يشير بالفاء في (فخرج)، ودلالة (يجر ردائه) إلى شدة مبادرته وسرعته في الاستجابة

للأذان.

٢١ ـ قوله: "وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ مَا رَأَى" يشير إلى شدة فرحه ـ رضي الله عنه ـ بما سمع، وإرادة تأكيده حتى يكون العمل به مقررًا، كما ينبئ عن عظيم فرحته بأن صادف ورأى ما أصبح عليه العمل.

٢٢ ـ قوله: "فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ" إشارة إلى أن خبر عمر ـ رضي الله عنه ـ صدق خبر عبد الله بن زيد ـ رضي الله عنه ـ وأن الرؤيا حق كما قال ﷺ، فهو يحمد الله على ذلك.

مقصود الأذان:

١ ـ المقصود من مشروعية الأذان إعلام المكلفين بدخول وقت الصلاة، فيعلم الجاهل بدخول الوقت، ويتنبه المشغول والغافل، فيقوموا لأدائها، قال ابن حجر: "ويحصل من الأذان الإعلام بدخول الوقت، والدعاء إلى الجماعة، وإظهار شعائر الإسلام"(١).

وقد اختلف العلماء حول مقصود الأذان هل هو للإعلام بدخول وقت الصلاة، أو للإعلام بالصلاة المكتوبة، وقد أورده أبو بكر الدمياطي الشافعي: "واعلم أنه اختلف في الأذان هل شرع للإعلام بدخول الوقت، أو شرع للإعلام بالصلاة المكتوبة على قولين للإمام الشافعي رضي الله عنه، والراجح الثاني، وأما الأول فهو مرجوح، وينبني على القولين أنه لا يؤذن للفائتة على المرجوح؛ لأن وقتها قد فات، ويؤذن لها على الراجح؛ لأن الأذان حق للصلاة لا للوقت"(٢). والراجح أنه لا أذان للصلاة التي فات وقتها، وقد صلى النبي ﷺ صلاة فائتة دون أن يؤذن لها، ولو أذن كل واحد لصلاة فائتة لاختلط الفائت بالواقع، والتبس الأمر على المسلمين.

٢ ـ تقرير الحقائق التي يحملها في النفوس، قال الشنقيطي: "أَمَّا الْحِكْمَةُ فِي الْأَذَانِ فَإِنَّ أَعْظَمَهَا: أَنَّه مِنْ خَصَائِصِ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَصْلِ مَشْرُوعِيَّتِهِ، وَقَدِ اشْتَمَلَ

(١) فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٧٧.

(٢) إعانة الطالبين، ١/ ٢٢٩.

عَلَى أُصُولِ عَقَائِدِ التَّوْحِيدِ تُغْلَنُ عَلَى الْمَلَإِ، تَمْلَأُ الْأَسْمَاعَ حَتَّى صَارَ شِعَارَ الْمُسْلِمِينَ"[١]. وقال دروزة محمد عزت: "والأذان الإسلامي فريد رائع في بابه، وفيه هتاف متكرر بأعلى الصوت على ملأ الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ونحلهم بأن الله أكبر من كل شيء، فتمتلىء النفس المؤمنة قوة بذلك واستغناء عن غير الله، واستصغارًا لغير الله، وفيه دعوة متكررة إلى الفلاح والنجاح بالصلاة، والتي يعبد بها المؤمن ربّه الأكبر عبادة خاضعة فيتلو فيها قرآنه المجيد، ويسبّح باسمه ويحمده على نعمه، ويلتمس منه الرشد والهداية بالإضافة إلى الشهادة المتكررة بنبوة محمد ﷺ الذي شاء الله أن يكون خاتم أنبيائه، وأن يكون الدين الذي جاء به دين الإنسانية جميعًا. ويتكرر هذا كل يوم خمس مرات ليلًا ونهارًا في جميع أقطار الدنيا التي ينتشر فيها المسلمون"[٢].

٣ . إقامة الحجة على كلِّ مسلم، فالأذان دعوة للصلاة لا تُغفل أحدًا من عموم المسلمين، بل تصل إلى الجميع، وكلُّ محفل لا يدعى إليه الإنسان يكون له مندوحة في عدم حضوره، بخلاف ما دعي له فإنه لا يعذر لعدم حضوره إلا أن يقدم عذرًا قويًّا يعلل به عدم الحضور، فمن لا يدخل تحت الأعذار المبيحة للتخلف عن الصلاة كانت الحجة عليه بسماع الأذان.

٤ . تمحيص الناس، وبيان معادنهم، فعند سماع الأذان تتباين ردود أفعال المسلمين، فمنهم مستجيب، ومنهم معرض، ومنهم متهاون، ومنهم متردد، وبهذه الأفعال المتباينة يظهر من أحوالهم ما يضمرونه من إيمان ونفاق، وطاعة وعصيان، وإجلال وتهاون، وخشية وجرأة، وصدق وكذب، فالأذان ميزان الإسلام الكاشف لحقيقة كلٍّ.

دلائل الصدح بالأذان:

(١) أضواء البيان، ٨/ ١٤٧.

(٢) التفسير الحديث، ٧/ ٣٤٤.

١ ـ أن الدين قد ظهر، وعلت كلمته، وارتفعت رايته، وكثر أنصاره؛ فبعد أن كان الإسلام سرًّا في مكة، يستخفي أهله بصلاتهم، أصبحوا لا يخشون من الجهر بعبادتهم، وإعلان دينهم، فها هم يصدحون بالأذان، وفي هذا دلالة على علو شأنه على كل دين، قال النووي: "وَذَكَرَ الْعُلَمَاءُ فِي حِكْمَةِ الْأَذَانِ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءٍ: إِظْهَارُ شِعَارِ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَالْإِعْلَامُ بِدُخُولِ وَقْتِ الصَّلَاةِ وَبِمَكَانِهَا، وَالدُّعَاءُ إلى الجماعة"(١)،

٢ ـ الفخر بالإسلام وشعائره، وعدم الاستخفاء بها، أو الحياء منها، فالمسلم يفخر بإسلامه، ويستعلي به على الكون كله.

٣ ـ إغاظة أعداء الإسلام؛ بإظهار توحيد الله، وانفراده بالعبودية، والشهادة لرسوله ﷺ بالرسالة، وإعلان ترتب الفلاح على الالتزام بفرائضه.

معنى الإقامة: الإقامة لغة: مصدر أقام، من إقامة الشيء إذا جعله مستقيمًا. فالإِقَامَةُ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرُ أَقَامَ، وَحَقِيقَتُهُ: إِقَامَةُ الْقَاعِدِ أَوْ الْمُضْطَجِعِ، فَكَأَنَّ الْمُؤَذِّنَ إذَا أَتَى بِأَلْفَاظِ الْإِقَامَةِ أَقَامَ الْقَاعِدِينَ، وَأَزَالَهُمْ عَنْ قُعُودِهِمْ(٢)، فحقيقتها أن يحصل بها القيام.

الإقامة شرعًا: الْإِعْلَامُ بِالْقِيَامِ إلَى الصَّلَاةِ بِذِكْرٍ مَخْصُوصٍ(٣)، فالإقامة كالأذان كلاهما للإعلام، لكن فرق ما بينهما أن الأذان للإعلام بدخول وقت الصلاة، والإقامة للإعلام بالقيام إليها، وهي كالأذان في كونها لها ذكر مخصوص لا زيادة عليه ولا نقصان، ولا خلل في ترتيبه.

---

(١) شرح النووي على مسلم، ٤/ ٧٧.

(٢) ينظر: مطالب أولي النهى، ١/ ٢٨٤.

(٣) ينظر: مرقاة المفاتيح، ٢/ ٥٦٥.

صيغة الإقامة:

ورد في الحديث السابق في صيغة الأذان الذي رواه أبو داود في سننه عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ابْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ، أنه قال: "ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ، قَالَ: وَتَقُولُ: إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ: (اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)"(١).

مقصود الإقامة: استنهاض الحاضرين للصلاة، بإعلامهم بأن الصلاة أقيمت، وذلك بذكر مخصوص.

(١) سنن أبي داود، كتاب: بدء الأذان، باب: كيف الأذان، رقم: ٤٩٩، ١/ ١٣٥.

المبحث الأول

دقائق الأسرار في صيغة الأذان

وتحته مطلبان:

المطلب الأول: التحليل البلاغي لصيغة الأذان.

المطلب الثاني: التحليل البلاغي لصيغة ترديد الأذان.

المطلب الأول

التحليل البلاغي لصيغة الأذان

إنَّ الأذان شرع للإعلام بدخول وقت الصلاة، وهو من خصائص الأمة المحمدية؛ إذ لم يكن له نظير في الشرائع السابقة؛ لذا أصبح شعارَ الإسلام الأول، ونداءً لأعظم شعائره، من ذلك كانت ألفاظه وتراكيبه إلهامًا ووحيًا من الوحي، تحمل في طياتها ما يحمل المسلم على التنبه من الغفلة، والإجابة لهذا النداء.

(الله أكبر، الله أكبر...الله أكبر، الله أكبر):

معنى التكبير وحقيقته:

التكبير: مصدر كبَّر، تفعيل مراد به النسبة والتوصيف؛ أي أن تنسبوا إلى الله الكبر؛ والنسبة هنا بالقول اللساني، والمراد بالكبر هنا العظمة والجلال، والتنزيه عن النقائص(١).

وحقيقة التكبير: الثناء على الله، وتعظيمه وإجلاله، وإظهار الافتقار إليه، والذل بين يديه، فشأن التكبير عظيم، ومعانيه جليلة.

صور التكبير هي: التعظيم بالقول، والقلب، والفعل، فالتعظيم بالقول هو قولك تعظيمًا وثناء: الله أكبر، والتكبير بالقلب هو: أن تعظمه، وتقدره حق قدره، فلا يعظم في قلبك سواه، والتكبير بالفعل هو: أداء العبادات على وجهها الأتم بما فيها من تعظيم لله، وصرف النية بالفعل له وحده.

إن التكبير عبادة من أعظم العبادات التي أمرنا الله بها، وحثنا على الجهر بها إعلانًا لذكره جلَّ وعلا وشكره، وإظهارًا لشعائره، وتعظيمًا له جلَّ جلاله، وإعلاءً لذاته، وثناءً عليه، وابتهاجًا بأداء طاعته، وإذلالًا للشيطان، واستعلاءً على الأرض بمن فيها، وما فيها.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ٢/ ١٧٦.

(الله أكبر) كلمة نستشعر بها جلال الله وعظمته، ونقدره بها حق قدره، وهي رأس التكبير وعماده، وأول ما كلف به النبي ﷺ ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر: ١ – ٣]؛ أي لا تترك لأحد في الأرض كبرياء إلا كبرياء الله، فهو سبحانه الذي يستحق التكبير والتقديس والتنزيه، وقال تعالى﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١]، ومما أمر المولى به أهل الإسلام؛ شكرًا لله على هدايته وتوفيقه؛ فقال عقب آيات الصيام﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

مواطن التكبير:

شرع التكبير عند بدء العبادات، فإذا نظرت في العبادات كلها وجدتها تبدأ بالتكبير تعظيمًا لله، وتعريفًا بقدره، وإعلانًا من المسلمين أن الله أكبر مما يشغلهم عن عبادته وطاعته، وأكبر من عبادتهم وطاعتهم، فيزيد ترسخ هذه الحقيقة في نفوسهم، وهم يشرعون في أداء عباداتهم، فالأذان يبدأ بالتكبير، والإقامة كذلك، والصلاة تفتح بالتكبير ليستحضر المؤمن عظمة الله، وعظم الموقف، ويدرك أن الذي يقف بين يديه أكبر من كل شيء يشغله عنه، واستحضار هذا وحده وإدراكه كافٍ في قطع اشتغال العبد بشيء عن الكبير المتعال.

كذا التكبير عند الانتقال من حال إلى حال في الصلاة، فيقول العبد مع كل انتقال: (الله أكبر) قائمًا وراكعًا وساجدًا حتى لا يغفل عن هذه الحقيقة؛ لا يقولها بلسانه، وقلبه مشغول عنها، بل يقولها اللسان مع إدراك القلب أن ربه أكبر من كل شيء، فيمتلئ قلبه بها.

(الله أكبر) تأتي في أدبار الصلوات، في أذكار الصلاة في نهايتها؛ إذ نبتدئ بالتسبيح، ثم التحميد، ثم التكبير، وسر هذا الترتيب بين هذه الأذكار أن التسبيح فيه تنزيه لله عن كل عيب ونقص، فسبحان الله؛ أي أنزهه وأقدسه، وأطهره أن يكون في شأن من شؤونه نقص أو عيب، و (الحمد لله) فيه إثبات الأسماء الحسنى، والصفات العلى، والأفعال الجميلة، فذاك تخلية، وهذا تحلية، فـ (سبحان الله) إزالة لما يمكن أن

يعتقد من نقص في ذاته تعالى، ثم الحمد فيه إثبات لكماله سبحانه، وبعد ذلك كله، هل تكون بهذا قد بلغت المنتهى، وحصلت المقصود؟ لا، لذلك تقول: الله أكبر؛ أي أكبر من تسبيحي، وتحميدي، أكبر من ثنائي وتمجيدي، الله أكبر من قولي: الله أكبر.

والتكبير كذلك بعد إكمال عدة الصيام، وفي الأعياد، وعند الذبح، وعند بدء مناسك العمرة، والحج، وعند الطواف، وعند السعي بين الصفا والمروة، وعند كل منسك من مناسك الحج، حتى يعمق في النفوس أن الله أكبر من كل شيء حتى من عبادتنا، وتضحياتنا فيه مهما بلغ عظمها، فالدين كله يعد تفصيلًا لها، يقوم المسلم بجميع العبادات، وشتى ألوان القربات؛ إجلالًا لله، وتعظيمًا لشأنه، وقيامًا بحقه، وعرفانًا بقدره، فالله أكبر عند الشروع في العبادة تذكرك حتى لا تصرف عبادة لغيره، ولا يعظم في قلبك غيره.

والتكبير عند عظمة الفعل، والحال، والجمع؛ ليتيقن القائلُ أن الله أكبر من كل ذلك، فيستولي كبرياؤه ـ جلَّ وعلا ـ على القلب، والتكبير كذلك عند ارتقاء الأماكن العالية، وعند ركوب الدابة، وعندما يأوي المسلم إلى فراشه، وعند لقاء العدو، وعند النصر.

(الله أكبر) هي نداء المسلمين إلى عبادتهم، وشعارهم في حروبهم، وسلاح يرهبون به عدوهم، ودرع يحتمون به من التذبذب عند النزال، وتثبت به أقدامهم، هي صيحات الفرحة عند نصرهم، وحداؤهم في محافلهم، فإذا حاربوا فالله أكبر، وإذا انتصروا فالله أكبر، هي صرخة الحق، واستغاثة المظلومين، وملاذ المكروبين، وأمان الخائفين، ونور العابدين، وضراعة المستغفرين.

ومقصود (الله أكبر) الأعظم أنه تعالى أكبر من كل شيء، وأكبر مما يشغلك، وأكبر من تضحياتك، وأكبر من عبادتك، وأكبر من عدوك في الحرب، وأكبر من جهادك وتضحياتك، وأكبر من أي معنى، وهدف وغاية.

التحليل البلاغي لصيغة التكبير:

براعة الاستهلال: استهل الأذان بلون بديعي حيث صُدر بما يشير إلى مقصوده، وهو التفرغ لدعوة الله؛ لأنه أكبر من كل ما يشغل الإنسان عنه، فأتى بالمعنى الذي هو

المقصد الأول للأذان براعة في الاستهلال، يقول الخطيب القزويني "وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود، ويسمى براعة استهلال"[1]، بأن يكون فيه إشارة إلى ما سيق الكلام من أجله، بأن يكون الابتداء مشعرًا بالمقصود، ومنبئًا به، فالاستهلال بقوله: (الله أكبر) يؤذن بأنه سينادينا إليه مما نحن فيه عقيب هذا القول الذي أراد أن يلفتنا به ابتداء إلى هذه الحقيقة، وهو أنه أكبر مما نحن فيه.

وكانت الجملة بخصائصها من الاسمية، وابتدائية الخبر، والتعبير باسم الجلالة، وتنكير المسند معبرة تمام التعبير عما تقصده، فجمعت الجملة بجانب براعة الاستهلال، ومناسبة المقصود أسباب الحسن التي يبتدأ بها الكلام: ألفاظ متلائمة، سلسلة، عذبه، لا مستكرهة، ولا غريبة، ولا ثقيلة، عبارة قصيرة، واضحة، تركيب بسيط مستقيم، لا غموض فيه، أو التواء، فصار ابتداء الأذان أعذب لفظًا، وأحسن نظمًا، وأصح معنى، وأكثر مطابقة لمقتضى الحال.

وهذا الاستهلال أثار انتباه المتلقي، وجذبه ليمكن في نفسه أمَّ الحقائق الكونية، وهي أن الله أكبر من كل شيء؛ كما أنه مهد لما يأتي بعده من عبارات، وحمل المتلقي على أن يقبل على جميع الكلام بالإصغاء والتأمل.

وحسن الابتداء منزلته عظيمة في البيان، قال بعض الكتاب: "أحسنوا معاشر الكتّاب الابتداءات؛ فإنهن دلائل البيان"[2].

إن الابتداء هو أول ما يصل إلى سمع المخاطب، فإن كان حسنًا أقبل عليه المخاطب، وإن لم يكن حسنًا، فإن المتلقي يعرض عن الكلام، وينفر منه، فلا يقبل عليه، ولو كان ما يأتيه بعد هذا الابتداء في غاية الحسن.

وصدر الأذان بهذه الجملة؛ لأنها هي الأهم؛ والعرب كما يقول سيبويه: "كأنَّهم إنما

---

(١) الإيضاح، ص٣٩٢.

(٢) كتاب الصناعتين، ص ٤٣١.

يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أَعْنى"[١]، فهذه الجملة هي الحاملة لمضمون ما يهدف إليه الأذان، وهو الإعلام بدخول الوقت حتى يفرغ الناس مما هم فيه لتأدية الصلاة لله، فتنبههم الجملة بالمقصود الأعظم من الأذان، وهو أن الله أكبر من كل كبير، وأجل من كل جليل، أكبر من كل ما هم فيه من مال وعمل، وزوجة وولد، فيجب عليهم أن يفرغوا مما هم فيه لتلبية ندائه، وعبادته.

والاستهلال بهذه الجملة مؤذن بإثبات الواجب لله، وهو وجوده ـ جلَّ وعلا ـ بإثبات ذاته، وما يستحقه من الكمال، من تفرده بالكبرياء، وتوحده بالعلاء، وتنزيهه عن أضداد هذا المعنى، وإجلاله بإكبار دعوته، وتعظيمها، وتلبيتها، وهو أوجب ما يبتدئ به في هذا السياق، قال الملا القاري: "وابتدىء به؛ لأن في لفظة: (الله أكبر) مع اختصارها إثبات الذات وسائر ما يستحقه من الكمالات"[٢].

ووجه كون (الله أكبر) تثبت وحدانية الله؛ أنها بما فيها من تفضيل تثبت النقص للمفضول، وما كان ناقصًا لا يكون إلهًا، فنفى بذلك الألوهية عن كل ما عدا الله، وأفرده جلَّ وعلا بالوحدانية، قال الطاهر بن عاشور: "وَإِثْبَاتُ الْأَعْظَمِيَّةِ لِلهِ فِي كَلِمَةِ: (اللهُ أَكْبَرُ) كِنَايَةٌ عَنْ وَحْدَانِيَّتِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّ التَّفْضِيلَ يَسْتَلْزِمُ نُقْصَانَ مَنْ عَدَاهُ، وَالنَّاقِصُ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِلْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّ حَقِيقَتَهَا لَا تُلَاقِي شَيْئًا مِنَ النَّقْصِ"[٣].

ومن أسرار تصدر الأذان بـ (الله أكبر) وتكرارها: بيان أن معناها أحق ما يجب الالتفات إليه وقت سماعها، وكررها لإرادة ترسخها في قلب السامع، وابتدأ بها وانتهى لزيادة تأكيدها وترسيخها.

وصيغت الجملة في الأسلوب الخبري؛ لأنها تقرر واقعًا، وتحكي كائنًا، وهو أن الله أكبر من كل شيء، وأكبر من أن ينسب إليه ما لا يليق بجلاله، ولو صيغت الجملة

---

(١) الكتاب، ١/ ٣٤.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣/ ٨٨ ـ ٩١.

(٣) التحرير والتنوير، ٢/ ١٧٦.

إنشائية على نحو: (كبروا الله) لتشربت معنى أن الأذان يأمرنا بإنشاء معنى (تكبير الله) وابتدائه، ويستدعي مطلوبًا ليس حاصلًا وقت الطلب؛ أي أن تكبير الله أمرٌ ليس حاصلًا وقت الطلب، والجملة تطلبه.

إن صياغة الجملة على هذا النحو (الله أكبر) تحمل المؤمن على أن يراجع نفسه، ويخجل ويرتدع؛ لأنه لو انشغل عنها لخالف ما هو مقرر واقع لا يماري فيه أحد، وكأن الكون كله يعلم هذا، ويقر به إلا هو المنشغل عن دعوة الله، فالجملة يتسرب منها معنى التوبيخ للمنشغل؛ أي أنت فقط أيها المنشغل من تخفى عليك هذه الحقيقة، فلا تقوم بما تقتضيه.

ولو كانت الجملة إنشائية (كبروا الله) لضعف المعنى في نفسه؛ لأنه أمر بإيجاد ما ليس موجودًا، فالامتثال له لا يكون بقوة التنبيه على ما هو واقع موجود.

وصيغ التكبير في جملة اسمية دون (أكبرُ اللهَ) على غرار (أشهد أن لا إله إلا الله)، لتقوية الخبر، ولبيان ثبوت هذه الحقيقية ودوامها، فلا شيء يكبره على الإطلاق زمانًا ولا مكانًا، عملًا ولا قولًا، نعيمًا ولا همًّا، شغلًا ولا فراغًا، في أي حقيقة من حقائق الكون، في نفس أي سامع بما يحمله، وبما يشغله.

وسيقت الجملة مع عظم حقيقتها وضخامتها في صورة ابتدائية، لم تشتمل على أي مؤكد بأن تأتي على نحو: إن الله أكبر؛ لبيان أن المعنى الذي تحمله وهو انفراده جلَّ وعلا بهذه الحقيقة بدهي، لا يخفى، ولا يماري فيه عاقل، أو يشك فيه شاك أو يرتاب؛ ودلائل ذلك وشواهده في كل شيء، أما أن يكون هناك منكر لهذه الحقيقة اعتقادًا، أو منكر لها تنزيلًا لانشغاله عن هذه الدعوة بتوافه الأمور ومحقراتها، والإقبال على الدنيا ومتاعها . وكلاهما واقع كائن . فإنه مما لا يؤبه له، ولا يلتفت إلى إنكاره في هذا السياق؛ لأن معه من الدلائل ما لو تأمله لارتدع، وكفَّ عن انشغاله عن هذه الدعوة المباركة.

سر التعبير باسم الجلالة (الله):

افتتحت الجملة باسم الجلالة (الله) العلم على ذاته جلَّ وعلا، وهو الاسم الدال على جميع الكمالات، وصفات الجمال والجلال للذات الإلهية، افتتح به؛ لِإِدْخَالِ المهابة والتعظيم في النفوس لمضمون هذا الحكم، وليكون هذا الحكم واضحًا جليًّا، خالصًا له جلَّ وعلا من الأوهام والشكوك والادعاءات، ومن أي احتمالية في أي زمان أو مكان بمشاركة أحد لله في هذا الحكم؛ إذ إن هذا الاسم لا يشاركه فيه أحد، ولا يطلق على سواه، وقد بيَّن الوحي الإلهي أن (الله) لا سميَّ له، ولا كفؤ، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١ – ٤]، فكما كان الاسم خالصًا له عزَّ وجلَّ، فكذلك ما أسند لهذا الاسم من حكم لا يكون لغير الله خالصًا، ولا يكون غيره مشاركًا له فيه.

وآثر التعبير باسم الجلالة دون غيره من الأسماء الحسنى كالملك، الذي يحمل دلالة على رفعة المقام، وعلو الشأن؛ إيذانًا بأنه بذاته أكبر من كل شيء، لا لصفة من صفاته، أكبر من أن يعرف خلقه كنه صفاته، وليعلم المتلقي أنه يلبي دعوته، ويجيب نداءه، ويفرغ مما هو فيه لعبادته لذاته جلَّ شأنه، لا لصفة من صفاته.

ولم ينادِ باسم يحمل عطاء من عطاءاته كالرزاق أكبر، أو الوهاب أكبر، ليرغب الناس فيه عما هم فيه، وليحملهم على الالتفات لما في هذه الأسماء عما يشغلهم عن دعوته، فغالب انشغالاتهم عن تلبية النداء هو أمر الرزق والمنافسة على الدنيا بمختلف حظوظها، لكن الأذان لم يلفتهم بأن الرزاق أو الوهاب، أو المعطي أكبر؛ لتخلو الدعوة إليه من الاستعطاف، كما لم ينادِ عليهم باسم يحمل ترهيبًا كالمنتقم، والعزيز؛ ليحملهم قهرًا على الإجابة، لتخلو الدعوة إليه من الإكراه، كما خلت من الاستعطاف، فدعوته باسم الجلالة (الله أكبر) دون استعطاف أو إكراه تحمل دلائل عزة الداعي، واستغنائه عن خلقه.

سر الإخبار عنه بمادة الكبر دون العظم مع أن دلالتهما واحدة:

وأخبر عن اسم الجلالة بمعنى من معانيه التي يدل عليها ويستغرقها، ووصف من

الأوصاف المتقررة لذاته ـ جلَّ وعلا، وهو قوله: (أكبر)؛ إذ إن اسم الجلالة (الله) يعطي معاني: الكبر، والعظم، والجلال، والكمال؛ ليكون المعنى المخبر به مستفادًا من اسم الجلالة، ومستفادًا مما أسند إليه، فكأنه وصف بهذه الحقيقة مرتين، مما يزيد ترسخها في الذهن، ويبقيها متوالية بتوالي الأزمان حقيقة مؤكدة.

وأخبر عن اسم الجلالة بمادة الكبر (الله أكبر) دون العظم مع أن دلالتهما واحدة، قال ابن منظور: "الكَبير فِي صِفَةِ اللهِ تَعَالَى: الْعَظِيمُ الْجَلِيلُ...قَالَ ابْنُ الأَثير: فِي أَسماء اللهِ تَعَالَى الْمُتَكَبِّرُ وَالْكَبِيرُ؛ أَي الْعَظِيمُ ذُو الْكِبْرِيَاءِ، وَقِيلَ: الْمُتَعَالِي عَنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ...والكِبْرِياء: العَظَمة وَالْمُلْكُ، وَقِيلَ: هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كَمَالِ الذَّاتِ، وَكَمَالِ الْوُجُودِ، وَلَا يُوصَفُ بِهَا إِلَّا اللهُ تعالى...وَهُمَا مِنَ الكِبْرِ، بِالْكَسْرِ، وَهُوَ الْعَظَمَة"(١). وقال ابن منظور: "وكَبَّرَ: قَالَ: اللهُ أَكبر. وَالتَّكْبِيرُ: التَّعْظِيمُ"(٢).

فالكبير معناه في اللغة العظيم؛ لكن الأذان جاء بمادة (كبر) دون (عظم)، مع أن عظيم يستعار لكل كبير، فعظم الشيء أصله كبر(٣)، وسر ذلك أن (كبير وصغير) من الأسماء المتضادة التي تقال عند اعتبار بعضها ببعض؛ أي كبير في جانب صغير(٤)، فسبحانه (أكبر) من كل شيء ينشغل به الإنسان عنه، وكل شيء في جانبه صغير، قال الراغب: "الصغر والكبر من الأسماء المتضادة التي تقال عند اعتبار بعضها ببعض، فالشيء قد يكون صغيرًا في جنب الشيء، وكبيرًا في جنب آخر. وقد تقال تارة باعتبار الزمان، فيقال: فلان صغير وفلان كبير إذا كان ما له من السنين أقل مما للآخر، وتارة تقال باعتبار الجثة، وتارة باعتبار القدر والمنزلة، وقوله: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]، وقوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]،

---

(١) لسان العرب، مادة: كبر.

(٢) السابق، مادة: كبر.

(٣) ينظر: المفردات، ص ٣٣٩.

(٤) ينظر: السابق، ص ٤٢٠.

وقولـه: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ [يـونس: ٦١]، كـل ذلـك بالقـدر والمنزلـة مـن الخير والشر باعتبار بعضها ببعض"[١]، فاعتبارات كبير كثيرة مما يناسب تمامًا اختلاف ما يكبر في نفوس الناس ساعة الأذان، وما يشغلهم عنه، فبكل الاعتبارات الله أكبر من كل شيء.

كما أن من أسرار التعبير بمادة (كبر) الذي اشتق منه اسمه تعالى (الكبير)، هو أن تتجلى أنوار هذا الاسم على المسلم، فلا يكبر في عقله، ويعظم في يقينه غير الله فينشغل به عن تلبية النداء إليه، فيرى ما دون الله صغيرًا أيًّا كان شأنه ووصفه، بل يغار أن يُكْبِرَ غيره، ويأسى إن عَظُمَ عنده سواه.

معنى (أكبر):

اختلف أهل العلم في معنى (أكبر) إلى أقوال، قال القرافي في تقرير هذا الخلاف، وبيان معانيه: "اختلف العلماء في (أكبر)، هل معناه: كبير؛ لاستحالة الشركة بين الله تعالى وغيره في الكبرياء، وصيغة (أفعل) إنما تكون مع الشركة؟ أو معناه: أكبر من كل شيء؛ لأن الملوك وغيرهم في العادة يوصفون بالكبرياء، فجيئت صيغة أفعل بناء على العادة؟"[٢]، وحاصل خلافهم يتلخص في ثلاثة آراء:

الأول: أن (أكبر) بمعنى (كبير)، قال أهل اللغة: هو بمعنى (كبير) فـ (الله أكبر) مَعْنَاهُ: (اللهُ كَبِيرٌ)، فَوُضِعَ أَفعل مَوْضِعَ فَعِيل، واحتجوا لذلك بقوله: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أَي هُوَ هَيِّنٌ عَلَيْه، وَمِثْلُهُ قَوْلُ مَعْنِ بْنِ أَوس:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وإِني لأَوْجَلُ

مَعْنَاهُ: إِني وَجِل.

وقال الكفوي: "قالوا: (أفعل) قد يستعمل لغير المبالغة كما في صفات الله تعالى؛ لأنه ينبئ عن التفاوت، وهو لا يليق بصفاته تعالى، وفيه نظر؛ لأن (أفعل) قد يكون بمعنى

---

(١) المفردات، ١/ ٢٨١.

(٢) الذخيرة، ٢/ ٥٧.

الفاعل، كما في قولهم: (الناقص والأشج أعدلا بني مروان)؛ أي عادلاهم، وكقولنا: (الله أكبر)؛ أي كبير، وقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]"[١].

ويرى الهروي القاري أن تفسيرهم إياه بالكبير ضعيف . وقوله هو الراجح . ووجه تفسير أكبر بكبير على معنى المفاضلة في كبير، فيكون المراد بهما سواء، على أنه في (أكبر) أظهر، فيقول: "ويمكن أن يكون المراد من كون كبير وأكبر واحدًا في صفاته أن المراد من الكبير المسند إليه الكبرياء بالنسبة إلى كل ما سواه، وذلك بأن يكون كل ما سواه بالنسبة إليه ليس بكبير، وهذا المعنى هو المراد بأكبر فتدبر، ولكن لما كان هذا المعنى في أكبر أظهر لم يجوز بعضهم في التحريمة إلا أن يقال: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر)؛ أي كبر أربع مرات"[٢].

الثاني: أن (أفعل) للتفضيل، ولما كانت (أفعل) لا تستعمل إلا مع (من، أو أل، أو الإضافة)؛ أي تلزم واحدًا من الثلاثة حتى يستقيم التفضيل، وهذه هي حالاته التي بينها النحويون، فلا يقال: (هو أفضل) دون الثلاثة، إلا أن يكون المفضل عليه معلومًا بقرينة[٣]؛ فقد حمله سيبويه على الحذف، فتابعه أهل العلم، لكن تعددت تأويلاتهم في تقدير المحذوف؛ إلى ما يأتي:

١ ـ قِيلَ: مَعْنَاهُ: (اللهُ أَكبر) مِنْ أَنْ يُعْرف كُنْه كِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَتِهِ، وإنما قُدِّرَ لَهُ ذَلِكَ وأُوّلَ؛ لأَن (أَفعل) فِعْلٌ يَلْزَمُهُ الأَلف وَاللَّامُ، أَو الإضافة كالأَكْبَر وأَكْبَر القَوْمِ.

٢ ـ وقيل: (الله أكبر) معناه: أكبر من أن ينسب إليه ما لا يليق بجلاله ووحدانيته وصمديته.

٣ ـ وقيل: أَكبر مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا تَقُولُ: أَنت أَفضلُ، تُرِيدُ: مِنْ غَيْرِكَ، وقال الكسائي والفراء وهشام: مَعْنَاهُ: اللهُ أَكبر مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ أَي أَعظم، فَحُذِفَ لِوُضُوحِ مَعْنَاهُ،

---

(١) الكليات، ١/ ١٣٣.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣/ ٨٨ ـ ٩١.

(٣) ينظر: الكليات، ١/ ١٣٠.

وأَكبر خَبَرٌ، والأَخبار لَا يُنَكَّرُ حَذْفُهَا، وكذا قال العيني: "قوله: (الله كبر) إلى آخره مَقولُ القَول؛ ومعنى (اللّه أكبر)؛ أي: أكبر من كل شيء، وقد عرف أن أفعل التفضيل لا يستعمل إلا بأحد الأشياء الثلاثة: (الألف واللام، والإضافة، ومِن)؛ وقد يستعمل مجردًا عنها عند قيام القرينة كقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]؛ أي: أخفى من السِّرّ، ومنه (اللّه أكبر)"[(١)].

٤ ـ منهم من يقول: إِنَّ فِيهِ ضَمِيرًا، والْمَعْنَى: (اللهُ أَكْبَرُ كَبيرٍ)، وَكَذَلِكَ اللهُ الأَعَزُّ؛ أَي: أَعَزُّ عَزيز؛ واستشهد بقول الْفَرَزْدَقُ:

إِن الَّذِي سَمَكَ السماءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا، دَعائِمُه أَعَزُّ وأَطْوَلُ

أَي: عَزِيزَةٌ طَوِيلَةٌ.

٥ ـ قال ابن الأنباري: وأجاز أبو العباس (الله أكبر)؛ أي المعنى على الوقف دون تقدير محذوف، واحتج بأن الأذان سمع وقفًا لا إعراب فيه [(٢)].

الثالث: قطع صيغة (أفعل) عن التفضيل:

إن اسم التفضيل: موضوع لبيان ما زاد على غيره في أمر، ومعناه: أن شيئين اشتركا في صفة، وزاد أحدهما على الآخر في تلك الصفة، ولا يشترط أن يتحقق الاشتراك بين المفضل والمفضل عليه تحقيقًا، بل قد يكون فرضًا، وقد يأتي بالصيغة لا يراد بها التفضيل كما في (الله أكبر)، فقد قيل: "اسْمُ التَّفْضِيلِ مَسْلُوبٌ الْمُفَاضَلَةَ، مَقْصُودٌ بِهِ قُوَّةُ الْوَصْفِ، كَمَا فِي قَوْلِنَا: اللهُ أَكْبَرُ، لَا تُرِيدُ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كَبِيرٍ آخَرَ"[(٣)]، فـ (أفعل) قد قطع

(١) شرح أبي داود، للعيني، ٢/ ٤٢٤.

(٢) ينظر: تحرير ألفاظ التنبيه، ص ٥٢، ولسان العرب، مادة: كبر، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣/ ٨٨ ـ ٩١، وتاج العروس من شرح جواهر القاموس، ١٤/ ٥، ٦، وعون المعبود، ٢/ ١٢٠، ١٢١.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٠/ ٢٦٠.

عن متعلقه قصدًا إلى نفس الزيادة، وإفادة المبالغة في اتصاف الموصوف بالصفة، ونظيره: فلان يعطي ويمنع؛ أي توجد حقيقتهما فيه، وإفادة المبالغة من حيث إن الموصوف تفرد بهذا الوصف، وانتهى أمره فيه إلى أن لا يتصور له من يشاركه فيه.

فالتفضيل هنا لا بالنظر إلى مفضل ومفضل عليه اشتركا في صفة، وإنما لبيان الكمال والزيادة في الوصف، وعلو المتصف بهذا الوصف عن غيره، وفي ذلك يقول الكفوي: "وقد يستعمل (أفعل) لبيان الكمال والزيادة في وصفه الخاص، وإن لم يكن الوصف الذي هو الأصل مشتركًا...وقد يقصد به تجاوز صاحبه وتباعده عن الغير في الفعل لا بمعنى تفضيله بالنسبة إليه بعد المشاركة في أصل الفعل، بل بمعنى أن صاحبه متباعد في أصل الفعل متزايد إلى كماله فيه على وجه الاختصار فيحصل كمال التفضيل، وهو المعنى الأوضح في الأفاعل في صفاته تعالى؛ إذ لم يشاركه أحد في أصلها حتى يقصد التفضيل نحو: (الله أكبر)"[1].

فكل ما جاء من أوصاف الله جلَّ وعلا يحمل على أنَّ أفعل وفعيلًا في صفاته تعالى سواء؛ فلا يراد بأكبر إثبات الزيادة في صفته بالنسبة إلى غيره بعد المشاركة؛ لأنه لا يساويه أحد في أصل الكبرياء.

وأرى أن التفضيل هنا على بابه تنزيلًا للمخاطب منزلة من يعتقد الشركة في المعنى بين الله وبين ما هو فيه؛ لانشغاله به، وتفضيله على ما دعا إليه الله جلَّ وعلا. نعم، الله أكبر باعتبار القدر والمنزلة، لا يشترك معه في قدر الألوهية، ومنزلة الربوبية شيء حتى يقال: إن فيه تفضيلًا، لكن باعتبار المقام وهو النداء إلى عبادته، وانشغال المخاطبين عن دعوته وعبادته فإن معنى التفضيل فيه قائم، فالمقام هو الذي يقضي أن معنى (الله أكبر) هو: أنه ـ جلَّ وعلا ـ أكبر من كل شيء وأعظم، ومقصود هذا القول عقيدة: أن يمتلئ قلب القائل بالله، فلا يعظم أحدًا سواه، ولا يتوكل على غيره، ولا يرجو إلا هو، ولا يدعو غيره، ومقصوده الأجلى في هذا السياق: ألا ينشغل عن طاعته، ولا

---

(١) الكليات، ١/ ١٣٣.

يلهينه شيء عن ذكره، لا مال ولا ولد، لا تجارة ولا بيع، لا جاه ولا منصب، لا فقر ولا غنى، لا صحة ولا سقم...فكان الأذان مبدوءًا بهذه الجملة؛ ليستشعر العبد عظمة من يناديه، ومن شرعت له هذه العبادة.

وهذا النداء يتناسب مع أكبر وأعظم عبادة بعد الشهادتين، وكرر النداء مع كل صلاة، فكان في أوقات متعددة ليطرق سمع المسلم، فيذكره بربه بين الحين والآخر، قبل نومه، وعند نومه، وعند صحوه، وفي أثناء عمله حتى يذكره بربه، فيذكر ربه في عمله، ويلتفت إلى أن ربه أكبر من عمله، وبعد عمله وهو في قيلولته، حتى يتدارك الأذان والصلاة ما يمكن أن يطرأ على العبد من غفلة وانشغال عن عبادة ربه، وهكذا يأتي الأذان بعد الأذان لينبه العبد، ويعود به إلى ذكر ربه، وهذا من فيض عطاء الله وإنعامه ورحمته، وهكذا دواليك حتى يقوى في يقينه أن الله أكبر من الدنيا وما فيها، ومن فيها، وكلما استشعر المسلم هذا المعنى زاد في قلبه عظمة ربه، فأقبل على طاعته، ولم يلهه عن عبادته شيء من ملهيات الدنيا وشواغلها مهما كانت شواغله.

إنها دعوة كريمة عظيمة؛ إذ إن الله الملك هو الذي يدعو عبده للقائه، ويرغبه في ذلك بـ (الله أكبر، وحي على الفلاح)، إن ملوك الدنيا لا ينادون على أفراد رعيتهم لمقابلتهم، وإن طرأ لواحد من أفراد رعيتهم عندهم حاجة، فقام لطلبها قد يقف على بابه أيامًا وليالي حتى يؤذن له.

معنى الكبير:

(الكبير) اسم من أسماء الله الحسنى، سمى الله نفسه به على سبيل الإطلاق ليكون علمًا على ذاته، دالًّا على كمال صفة من صفات ذاته، ومعناه: أنه جلَّ وعلا كبير الشأن، كبيرٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، وأن نفوس العارفين به قد امتلأت بتعظيمه حتى أنه لا نظير له في قلوبهم، قال العسكري: "وَالْكَبِيرُ فِي أَسمَاء الله تَعَالَى هُوَ الْكَبِيرُ الشَّأْنِ، الْمُمْتَنِعُ من مُسَاوَاة الْأَصْغَر لَهُ بالتضعيف...وَقَالَ بَعضهم: الْكَبِيرُ فِي أَسمَاء الله

تَعَالَى بِمَعْنى أَنه كَبِيرٌ فِي أنفس العارفين غير أَن يكون لَهُ نَظِير"[1].

وقال السعدي: "ومثل اسمه العظيم الكبير الذي له جميع معاني العظمة والكبرياء في ذاته وأسمائه وصفاته، وله جميع معاني التعظيم من خواص خلقه"[2].

سر الإخبار عن اسم الجلالة بأكبر دون كبير:

آثر الأذان التعبير بـ (أكبر) على صيغة التفضيل دون (كبير) على صيغة المبالغة، وأسرار ذلك تتبدى من بيان معنى الصيغتين، ومدى توافقها مع السياق.

لقد أخبر الأذان عن الله بأنه (أكبر) دون الإخبار عنه بأنه (كبير)؛ ليشير إلى ما تحمله صيغة التفضيل من معنى، وهو أن الله ليس كبيرًا في ذاته فحسب، بل كبيرًا في ذاته، كبيرًا في جانب كل كبير يشغل الإنسان عنه، بل أكبر من كل كبير، أكبر من كل شيء وأعظم وأجل وأعلى من كل شيء علوًّا مطلقًا، وفي هذا إشارة إلى أنه يستحق الفراغ له مما أنت فيه؛ إذ إنه جلَّ ذاته أكبر من كل ما أنت فيه، فكأن الجملة كانت مقدمة للدعوة، وموجبة لتلبيتها، فأكبر يفيد الزيادة في وصف عظمته، وعلو شأنه عن كل شيء، وهو كبير عظيم جلَّ شأنه، وأكبر هنا باعتبار القدر والمنزلة وهو العظم، وإيثار هذا الوصف في هذا المقام أنه نداء لمن ينشغل بتوافه الأمور ومحقراتها عن دعوة الله الأكبر من كل شيء.

كما أن التعبير بـ (أكبر) على صيغة التفضيل دون التعبير بـ (الكبير) المصاغ على صيغة المبالغة يشير إلى صغر وضآلة كل شيء في جانبه، أما (كبير) فهي وصف له دون تعرض لغيره بصغر ولا كبر وإن كان يشعر بذلك، فالكبير هو المسند إليه الكبرياء بالنسبة إلى كل ما سواه، فكل ما سواه بالنسبة إليه ليس بكبير، إلا أن كبيرًا وإن كان يشعر بذلك فإن السياق وهو دعوة الأذان يقتضي الأظهر دلالة، والأوضح معنى، وما أعطى المعنى ظاهرًا كان مقدمًا على ما يشعر به في نحو هذا السياق؛ لذا جاء وصفه

---

(١) الفروق اللغوية، ١/ ١٨٢.

(٢) تفسير أسماء الله الحسنى، ص ١٦٦.

تعالى بالكبير في القرآن في سياقات لا يتعرض فيها لغيره بوصف دون ذلك في خمسة مواضع: في الرعد، والحج، ولقمان، وسبأ، وغافر، وجاء وصف ما أضيف إليه بـ (أكبر) في سياقات يجعل ما أضيف إليه فيها أعلى وأجل من غيره في المقارنة، وكان بحاجة إلى ظهور المعنى ووضوحه، وذلك في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠]، فالكبير وصف للشيء في ذاته، و (أكبر) في منزلة التفاضل مع غيره، فيكون كبره على سبيل الحقيقة المؤيدة بالدليل والبرهان؛ إذ إن كل كبير قد يكون صغيرًا عند المقارنة والتفاضل مع غيره، فكل كبير هو صغير في جانب من هو أكبر منه، والله جلَّ وعلا أجلُّ وأكبر من كل شيء.

ومن دلالات التعبير باسم التفضيل كذلك تعاضده مع اسمية الجملة في إفادة الثبوت والدوام، فمن دلالات أفعل التفضيل الاستمرار والدوام، شأنه شأن الصفة المشبهة، ما لم توجد قرائن تعارض معنى الدوام والاستمرار[١].

سر تنكير أكبر:

وأتى بـ (أكبر) نكرة؛ لإفادة العموم بإسناد معنى العلو له على كل ما سواه، أي أكبر وأعظم عظمة مطلقة في كل شيء في ذاته وأسمائه وصفاته، ومن كل شيء، فهذا الحكم لا يخفى.

ولم يقل: الأكبر كما قال: (الأعلى) بأفعل التفضيل المقترن بأل؛ حتى لا يثبت أكبرية لأحد ينازع الله بها، فيشغل العبد بها عن التفرغ لعبادة الله بالصلاة، قال الكفوي: "وذكر

(١) ينظر: النحو الوافي، ٣/ ٣٩٥.

صاحب المغرب وغيره أن أفعل التفضيل إذا وقع خبرًا يحذف منه أداة التفضيل قياسًا، ومنه (الله أكبر)، وقول الشاعر: دعائمه أعز وأطول"[1]، فلو قال: الأكبر لكان هناك من هو أكبر إلا أن الله أكبر منه، كما في قوله: ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الغاشية: ٢٤]، فهذا يعطي أن هناك ألوانًا عظيمة من العذاب كبيرة هائلة، سيعذبه بالأكبر منها.

سر عدم ذكر المفضول:

ولم يذكر معه المفضل عليه، فلم يقيده بأكبر من أي شيء، وإنما جعله عامًّا؛ لظهوره من المقام، وليفيد التفضيل المطلق على كل شيء، وليصل بالعموم إلى كل الغايات، بل إلى ما لا غاية بعده، وإلى منتهى المعاني، أي أكبر من الذوات والأعراض، والمعاني، وللإشعار بأنه جلَّ شأنه أكبر من كل ما يشغل الناس على كثرتهم، وتنوع مشاغلهم، وكثرة ما يعظمونه في أنفسهم.

فبحذف المفضول تكاثرت المعاني لتشملَ كلَّ شيء من الأعراض والذوات، وتشمل عموم المتلقين يما يكبر في نفوسهم ويعظم، فحذف المفضول لفظًا وخفاؤه يومئ بحذفه وخفائه معنى حتى لا يقع في وهم، أو تصور وجود ما يقوم للتفاضل لفظًا حتى يقوم معنى، فكما أنه لا يليق أن يذكر شيء لفظًا مع الله، كذا لا يليق أن يخطر ببال أحد معنى.

ونحن إذا قارنا بين المفضول والمفضول عليه في قول المؤذن: (الله أكبر)، والمفضول والمفضول عليه في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، لتبين لنا عظيم فرق ما بين المفضول والمفضول عليه في قول المؤذن: (الله أكبر)؛ إذ إن الآية جعلت قليلًا من رضوان الله وهو المفضول أكبر

(١) الكليات، ص ١٣١.

من الجنة ونعيمها وهو المفضول عليه، فكيف لو كان المفضول رضوانه؟! وكيف لو كان المفضول ذاته، كما في الأذان؟! وإذا كان المفضول عليه في الآية ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾، فكيف والمفضول عليه في قول المؤذن: (الله أكبر) هو لعاعات الدنيا، وزخرفها ومتاعها الزائل؟! لا شك أنه لا مقارنة على الإطلاق.

سر تكرار التكبير، والفصل بين الجمل:

كرر التكبير؛ لمزيد ترسيخه في النفوس، فقد هيأ النفوس بتثنية التكبير في صدر الأذان، حتى يعظم في نفس المسلم، ويستحضر جلال الله، فلما كان ذلك تطلعت النفوس إلى ما يأتي بعده، فكرر التكبير ليترسخ في أعماق الأفئدة معناه بعد أن طرق الآذان في الأول؛ ليعلم الجميع أنه لا منتهى، ولا غاية بعده جلَّ وعلا، فيستصغر المرء كل شيء سوى الله، ولا ينشغل بشيء مهما كان عن ذكره، ولا يشغل نفسه بشيء، فالله أكبر، وإذا كانت الجملة تحمل ما تحمل من إثبات ما يستحقه الله من الجلال والكمال على نحو ما بينته، فإن الأعظم منها والأقوى هو تكرارها؛ إذ الأعظم من الثناء ذاته هو تجديده وتكريره، فكأنه اكتسب تعظيمًا آخر، وثناء أخر.

وجاءت الجمل الأربعة (الله أكبر، الله أكبر...الله أكبر، الله أكبر) بالفصل؛ لكمال الاتصال، فالجملة عين أختها جاءت توكيدًا لها، والمؤكِد والمؤكَد شيء واحد، والشيء لا يعطف على نفسه، أو لأن الأذان صيغ لمقصود الإعلام بالوقت، وكانت جمله وقفًا؛ فلذا لم تعطف[1].

خلاصة القول: أن معنى إثبات الأكبرية له على هذا النحو من العموم والإطلاق على كل الذوات والمعاني أنه جلَّ وعلا وجب له غايات كل المعاني ومنتهاها، وتفرد بها على كل من سواه، كالعلم، والقدرة، والحياة، وكل صفات الكمال، فاسم الجلالة (الله) يدل

(١) ينظر: الإيذان، ص ٥٤.

على ذلك؛ إذ يدل باللزوم على كل ما يجعله كبيرًا على سائر كل شيء، فما من صفة تعظم إلا وهو أكبر منها، ولا من ذات تعظم لاتصافها بصفة إلا وهو أكبر منها، ثم أسند إليه (أكبر) فزاد المعنى تمكينًا وترسيخًا في النفوس.

(أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله):

بعد أن قرر أن الله أكبر من كل شيء صرح بإثبات الوحدانية، ونفي المستحيل على الله، وهو وجود شريك له، فقال: (أشهد أن لا إله إلا الله)؛ لأن الله أكبر تعطي بالبرهان والدليل أن لا إله إلا الله.

معنى أشهد:

قال العسكري: "أصل الشَّهَادَة الرُّؤْيَة، وَقد شاهدتُ الشَّيْءَ رَأَيْته...قَالَ بَعضُهم: الشَّهَادَة فِي الأَصْل إِدْرَاك الشَّيْء من جِهَة سمع أَو رُؤْيَة، فالشهادة تَقْتَضِي الْعلم بالمشهود على مَا بَيْننَا"[1]، فالشهادة قول جازم، وخبر قاطع، لا تكون إلا عن علم اليقين؛ بأن يكون الشاهد عالمًا بما يشهد علم رؤية بصر، أو بصيرة، فيبين ما علمه، ويخبر بما شاهده، فيكون المعنى: أنني شاهدت بقلبي، وشهدت بلساني، وأيقنت يقين الحالف: أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

الإخبار عن مضمون الجملة بالشهادة دون العلم والإخبار:

عبر بمادة الشهادة دون العلم أو الخبر؛ لتكون الشهادة بذلك صادرة عن علم يقيني قاطع كعلم المرء بالمحسوس الذي يقع تحت حسه، ويعاينه ببصره، كما بين الراغب الأصفهاني بقوله: "الشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر"[2]، وقال العيني: "قال الزجاج...حقيقة الشهادة هو: تيقن الشيء وتحققه، من شهادة الشيء؛ أي حضوره"[3]؛ لذا فإن الشهادة بهذه الحقيقة واضحة جلية، صادرة عن يقين،

---

(١) الفروق اللغوية، ١/ ٩٦.

(٢) المفردات، ١/ ٢٦٨.

(٣) عمدة القاري، ٨/ ٩٢.

والشهادة أخصُّ من العلم؛ إذ إنها تتناول العلم بالموجود المشاهد؛ لذا سمي ما يدرك بالحواس، ويعلم ضرورة شاهدًا، أما العلم فيكون للمشاهد وغيره، ولا تسمى خبرًا؛ لأن الخبر يوصف بالصدق والكذب، ويكون بما يعلمه المخبر وبما لا يعلمه؛ لذا فإن شهادة الاثنين عند القاضي يجب العمل بها، ولا يجوز الانصراف عنها، ويجوز الانصراف عن خبر الاثنين(١).

والتعبير بمادة الشهادة في الإخبار عن كلمة التوحيد إيذان بأنها شهادة صادرة عن علم قطعي، وتصديق قائلها، وعمله بموجب هذا العلم.

معنى إله والله:

الإله: "الله عزَّ وجلَّ، وكلُّ ما اتخذ معبودًا من دونه إله عند متخذه"(٢)، والإله هو الذي تألهه، والوله: غاية الحب ونهايته، وأصله: "من أَلِهَ يَأْلَهُ إذا تَحَيَّر، يُرِيدُ إِذَا وَقَعَ الْعَبْدُ فِي عَظَمَةِ اللهِ وَجَلَالِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وصَرَفَ وَهْمَه إِلَيْهَا، أَبْغَضَ النَّاسَ حَتَّى لَا يَمِيلُ قَلْبُهُ إِلَى أَحد"(٣)، فالله إله، لكنه جلَّ شأنه هو الإله المعبود بحق الذي تألهه القلوب محبة وإجلالًا، وخضوعًا وذلًّا، وتعظيمًا وانقيادًا، ورغبة ورهبة ورجاءً، أما غيره فإله دون حق.

والله هو الاسم الدال على ذاته جلَّ وعلا، قال الكفوي: "الإله اسم لمفهوم كلي هو المعبود بحق، والله علم لذات معين هو المعبود بالحق، وبهذا الاعتبار كان قولنا: (لا إله إلا الله كلمة توحيد)؛ أي لا معبود بحق إلا ذلك الواحد الحق"(٤).

سر التعبير في الشهادة بالإله:

ولم يقل: أشهد أن لا معبود إلا الله، بل قال: (لا إله) حتى يرغب ويحبب في تلبية

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية، ١/ ٤٠، ٤١، ٤٢، ٩٦.

(٢) لسان العرب، مادة: أله.

(٣) السابق، مادة: أله.

(٤) الكليات، ١/ ٢٤٥.

النداء، ويكون المجيب للنداء جاء عن طواعية وحب؛ إذ إنه قرر أن المعبود مألوه؛ أي محبوب، وهو الله، فلا مألوه تألهه القلوب إلا الله.

كذا لم يقل: أشهد أن لا رب إلا الله، أو لا خالق، أو رازق؛ لأن المدعوين بذلك لم ينكروا ربوبية الله، وإنما كان الخلاف معهم يدور حول أنهم يعتقدون أن آلهتهم لها استحقاق العبادة، فجاءت شهادة التوحيد تثبت أنه لا يستحق العبادة إلا الله، يقول محمد عز توفيق: "لا إله إلا الله: لقد كان العرب يعتقدون أن آلهتهم التي يشركونها مع الله تعالى، أو من دونه تحميهم وتنصرهم وتجيرهم وتقضي حاجاتهم؛ ولذلك عبدوها دون أن ينكروا وجود الله تعالى، أو ينكروا أنه الخالق والرازق، فلم يكن نزاع النبي ﷺ معهم حول وجود الله تعالى وربوبيته، وإنما كان حول التسليم بالوحدانية والألوهية لله وحده . إن المشركين العرب الذين خوطبوا بـ (لا إله إلا الله) كانوا يعتقدون أن آلهتهم المزعومة لها قداسة، وبها استحقت العبادة، فالقرآن الكريم عَمَدَ إلى هذا الاعتقاد الأصلي فأبطله؛ ليبطل به كلَّ شرك موجود أو متوقع، فبين بيانًا حاسمًا: أنه لا سلطة لأحد في الكون مع الله عزَّ وجلَّ، ووضع خطًّا فاصلًا بين الألوهية والعبودية، وأنزل كلًّا منزلته. إن (لا إله إلا الله) تعني أن كل ما كان يصف به العرب آلهتهم من صفات الألوهية لله وحده، فهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله. لقد قال القرآن الكريم لهؤلاء المشركين: إن مَنْ خلق الكون، ويملك السلطة فيه هو الإله المستحق للعبادة، فهذا الأمر غير قابل للتجزئة، إذ لا يكون الخلق في يد إله، والرزق في يد آخر، والحكم في يد ثالث"[1].

سر التعبير بـ (الله):

ولم تأت الشهادة على نحو: أشهد أن لا إله إلا ربي، أو الخالق، وإنما عبر بالاسم العلم على ذاته جلَّ وعلا؛ لتكون شهادة التوحيد ناطقة بأنه هو بذاته الإله المحبوب المعبود بحق، ولتكون الألوهية للذات التي لها مجامع الكمال والجلال.

---

(١) مجلة البيان، مقال د/ محمد عز الدين توفيق، ٩٥/ ٣٢.

أسرار التعبير بالجملة الفعلية دون الاسمية على غرار سابقتها (الله أكبر):

وعبر عن الشهادة بالجملة الفعلية دون الاسمية، كنحو: (شهادتي أن لا إله إلا الله) مع إفادة الاسمية للثبوت والدوام، وآثر في الفعلية المضارع على الماضي، كنحو: (شهدت أن لا إله إلا الله) مع إفادة الماضي تحقق وقوع الشهادة، وسر ذلك هو ما يعطيه المضارع من الحدوث والتجدد، فيتجدد النطق بالشهادة، لتكون شهادة متجددة باستمرار، يحدثها العبد مرة بعد مرة، كلما انشغل عن الله تأتي الشهادة ليجدد بها القائل إيمانه، ويخبر بها عن حقيقة اعتقاده، وكأنه في كل مرة يجدد التبرؤ من دواعي الشرك الظاهرة والخفية، فيتجدد إيمانه بتجدد الشهادة، مما يحدث أثرًا في نفس المتكلم ويقينه واعتقاده.

وقد آثر المضارع (أشهد) دون أن يأمر بها (اشهدوا أن لا إله إلا الله) لتكون الشهادة خارجة من صميم قلب المسلم قولًا واعتقادًا لا مأمورًا بها

معنى مضمون الشهادة:

والمعنى بعد بيان مفردات الشهادة هو: أشهد قائلًا، وأعلم، وأبين عن اعتقادٍ جازمٍ يقينيٍّ لا شك فيه أن لا مألوه تألهه القلوب وتعبده بحق في الوجود، وتحبه إلا الله، فمضمون الشهادة، عابد معظم لمعبوده، محبٌّ له، يتجدد نطقه لإلهه بهذه الحقيقة آنًا بعد آن.

وهذه الشهادة: (لا إله إلا الله) هي كلمة التوحيد، وباب الإسلام ومدخله، لا إيمان للعبد إلا بتحقيقها، مع ضميمتها (محمد رسول الله).

أسرار أسلوب القصر:

صيغت الجملة بأسلوب القصر؛ لقصر الألوهية على الله جلَّ وعلا، ونفيها عن غيره قصر صفة على موصوف، فالصفة لا تتجاوز الموصوف إلى غيره أصلًا، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ إذ كان النفي عامًّا، وطابق الحقيقة والواقع، وجاءت جملة القصر بطريق النفي والاستثناء، وهو أقوى طرق القصر، يقول أستاذنا الدكتور/ أبو موسى: "وهكذا تمضي مع النفي والاستثناء، ولا تلقاك هذه الأداة إلا حيث تلقاك النبرة العالية، والنغمة

الحاسمة، والتعبير الشديد"[1].

والجملة بصياغتها لا تلتفت إلى منكر، أو إلى منزل منزلة المنكر، كيف والجملة قبلها تثبت له الأكبرية المطلقة، والمقام، والسياق، والغرض يوحي بأن مضمون الجملة حقائق مقررة في ضمير القائل للأذان والمتلقي له، إنما صيغت الجملة على هذا النحو؛ لأنها تحمل معنى يريد المتكلم أن يظهره كما انفعل به، وامتلأت به نفسه، وفاض به ضميره، ولو جاءت الجملة بغير أسلوب القصر على نحو (أشهد أن الله إله)، أو بقصر: (أشهد أن الإله الله) لضعف المعنى، ونبا به سياقه، وأنكره غرضه، وكان كلامًا غثًّا يأباه المقام، ويطرده من حيز بلاغة الكلام؛ لأنه لم يطابق مقتضى الحال الذي يتطلب التأكيد ليبرز قوة الخبر، وترسخه في ضمير المتكلم، ورغبته في تقوية مضمونه عند المخاطب، وتقريره في نفسه.

وصيغت جملة القصر بأسلوب النفي والاستثناء، وهو أقوى طرق القصر، نفي وإثبات، فبدأت الجملة بالنفي المطلق قبل الإثبات، (لا إله) فنفت كل ما يعبد بحق من جميع الآلهة والمعبودات من دون الله بشكل قاطع، ثم جاء الاستثناء ليثبت الألوهية لله وحده دون شريك، والمعنى: لا معبود بحق إلا الله، فلا يستقيم المعنى على نحو: لا معبود إلا الله، لوجود معبودين غيره، وإنما المعنى: لا معبود بحق، قال القرافي: "والإله المعبود، وليس المراد نفي المعبود كيف كان لوجود المعبودين في الوجود كالأصنام والكواكب، بل ثمَّ صفةٌ مضمرةٌ تقديرها: لا معبود مستحق للعبادة إلا الله، ومن لم يضمر هذه الصفة لزمه أن يكون تشهده كذبًا"[2].

وكانت عناية الجملة متجهة إلى النفي أولًا؛ لأن التخلية تسبق التحلية، فالمقصد الأول للجملة نفي الألوهية عن غير الله، وإثبات الألوهية له سبحانه أتى إشارة؛ لأنه إذا انتفت الألوهية عن جميع المعبودات من دون الله، فلا تثبت إلا لله.

---

(١) دلالات التراكيب، ص ١١٤.

(٢) الذخيرة، ٢/ ٥٧.

ولو صيغت الجملة على نحو: (أشهد أن الله إله) لكان إثباتًا لألوهيته جلَّ وعلا دون تعرض لغيره بنفي الألوهية عنه، فكأنه إله، وغيره إله، فلم تفد الجملة التوحيد المطلق؛ لأن الجملة لم تقطع بنفي وجود آلهة أخرى، مما قد يوهم وجود آلهة أخرى، لكن بالنفي والاستثناء يتحقق التوحيد الحقيقي الذي جاء به الإسلام.

وأسلوب الحصر بـ (إلا) من أقوى الأساليب العربية في تخصيص الحكم وإبطال أي احتمال آخر، فقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ ؛ أي أنه رسول فقط لا شيء آخر.

ولو قيل: (الله وحده إله) لأفاد المعنى لكنه ليس في قوة الحصر بـ (إلا)، ولو قيل: (الله إله، وليس غيره) فالمعنى كذلك يفيد ما أفاده أسلوب القصر لكن ليس بقدر الإيجاز والبلاغة التي في النفي والاستثناء.

فالتعبير بأسلوب القصر هو أقوى أسلوب يتحقق به التوحيد الخالص، حيث يشمل النفي العام، والإثبات الخاص، مما يزيل أي احتمال للشرك، ويؤكد عبادة الله وحده.

وتدل جملة القصر على هذا النحو من التعبير بالنفي والاستثناء أن قائلها معظم لمعبوده متأله، امتلأت نفسه بهذه الحقيقة، وأن الله تعالى هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتأليه والتذلل والخضوع؛ ولهذا قيل: كلمة لا إله إلا الله، كلمة التوحيد العظيمة.

كما تدل جملة القصر على هذا النحو من التعبير بالنفي والاستثناء على صدورها عن اعتقاد راسخ، ويقين ثابت.

أسرار تكرار الشهادة:

وكرر الجملة لزيادة التأكيد، ولتدبر هذه الحقيقة وإظهارها، فلا يستخفي المؤمن بها، بل يكون جهره بها عاليًا إبانة عن اعتقاده فيها، وعدم الإسرار بغيرها، فيترسخ في ضمير المؤمن من الجهر بها وتكرارها أن يكون هذا حاله مع حقيقتها ظاهرًا وباطنًا، كما أن الجهر بها بعد سنوات كانوا يستخفون بها في مكة أمر عظيم من فرط عظمه لا يكاد يصدق أن هذه الحقيقة قد ظهرت، وأعلنها أهلها في الكون، فأعادها لتوكيدها، يقول شمس الدين الرملي عن الترجيع، وهو الإسرار بكلمتي الشهادتين بعد التكبير: "حكمته

تدبر كلمتي الإخلاص لكونهما المنجيتين من الكفر المدخلتين في الإسلام، وتذكر خفائهما في أول الإسلام، ثم ظهورهما"[1].

ولم يجعلها أربعًا كجملة (الله أكبر) لأنها لا تحتاج إلى مزيد توكيد كسابقتها؛ لأن الأولى لمزيد التنبيه للغافل، وهي رأس الدعوة للصلاة ومقصودها الأول التي بني عليها النداء.

(أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله).

ثلث بالجائز في حق الله تعالى وهو إرسال الرسل، وأعطى الدليل على نفي الشركاء عنه، وهو أنه يفعل ما يريد، وثبت من ذلك رسالة سيدنا رسول الله ﷺ.

وعبر عن مضمون هذه الجملة بما عبر به عن مضمون سابقتها بمادة الشهادة، والجملة الفعلية فعلها مضارع لتكون مقترنة بشهادة التوحيد، على وفقها في الرسوخ واليقين، ومكافأة لها في الاعتقاد، فمن قل اعتقاده في إحدى الشهادتين عن الأخرى لا يقبل إيمانه، ولا تصح عبادته وطاعته، وآثر التعبير بالمضارع ليكون إعلانًا من العبد بأنه يجدد العمل بمقتضى رسالة رسول الله ﷺ ، يجدد اتباعه والاقتداء به.

ومن خصائص الجمل التي تحمل مضمونًا بالشهادة أن تصاغ مؤكدة على هذا النحو (أشهد أن)؛ لتتلاءم مع مدلول لفظ الشهادة، وما تستدعيه الشهادة من قوة العلم بالمشهود به، قال الطاهر ابن عاشور في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]: "ونَشْهَدُ خَبَرٌ مُؤَكَّدٌ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ الْإِخْبَارُ عَنْ أَمْرٍ مَقْطُوعٍ بِهِ؛ إِذْ هِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْمُشَاهَدَةِ؛ أَيِ الْمُعَايَنَةِ، وَالْمُعَايَنَةُ أَقْوَى طُرُقِ الْعِلْمِ؛ وَلِذَلِكَ كَثُرَ اسْتِعْمَالُ: أَشْهَدُ وَنَحْوِهِ مِنْ أَفْعَالِ الْيَقِينِ فِي مَعْنَى الْقَسَمِ"[2].

فلكون الشهادة من المعاني المهمة التي يريد المتكلم تقريرها وترسيخها في نفوس المتلقين جاءت مؤكدة بـ (أن)، لا لمخاطب يستدعي ظاهرُ حاله توكيدًا، ولا لحالة

---

(١) نهاية المحتاج، ١/ ٤٠٩.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٨، ٢٣٤.

تنزيلية اعتبارية للمخاطب، وإنما أكد لرغبة المتكلم في تقوية مضمون الخبر، فالتوكيد هدفه زيادة تقرير المعنى في نفس القائل، والمتلقي، وإن كان المعنى غير منكر؛ ليبلغ بالمعنى عين اليقين، ويثير اهتمام النفوس بمضمون الجملة.

سر التعبير عنه ﷺ باسمه العلم:

وذكر (محمدًا) باسمه العلم المعروف به، وهو أشهر أسمائه، وأظهرها، إجراء لنعمة الرسالة على اسمه الظاهر؛ أي محمد ﷺ وهو الفرد الكامل هو المخبر عنه بهذا، وفي هذا إحضار له ﷺ بعينه في ذهن السامع ابتداء باسمه الذي يخصه، ليتميز من غيره تمام التمييز في ذهن المتلقي، وقد أسهم التعبير بالاسم العلم ووضوحه في ذهن السامع في إسناد الخبر إليه في صورة قوية متمكنة.

وفي ترديد هذه الشهادة مع كل أذان إعلاء لذكره في العالمين، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، "قِيْلَ: معناهُ: قَرَنَّا ذِكرَكَ بذِكرِنَا، فلا يُذكر اللهُ إلَّا وتُذكَرُ معه في كلمةِ الشَّهادة والأذان"(١).

سر الإخبار عنه ﷺ بالرسالة:

وأخبر عنه بأنه (رسول الله) لاقتضاء المقام إياه، فالأذان نداء للصلاة، والذي يدعو إليها رسول الله ﷺ فأيد دعوته للصلاة بإعلان الشهادة له بالرسالة؛ أي أن دعوته إليها ليست من عنده، وإنما هي من بلاغات رسالته، فهو واسطة بينكم وبين الله، يبلغكم ما أرسله إليه الله، قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، فهذه الشهادة تحمل في طياتها صدق رسول الله ﷺ في دعوى رسالته.

(١) تفسير الطبراني، ٩/ ٤٠١.

ومضمون الشهادة له بالرسالة تصديقه فيما يبلغ عن ربه، فهو ليس كذابًا، وإجابته لما يدعونا إليه، والاقتداء به في عبادته، وإظهار شرفه- ﷺ ، وإغاظة عدوه، ونشر دينه، ورفع ذكره؛ إذ قرن اسمه ﷺ باسم المولى جلَّ في علاه.

فالشهادة لله بالوحدانية توجب الطاعة والعبادة، والشهادة لرسول الله ﷺ بالرسالة تتحقق به صحة الطاعة والعبادة.

وعرف المسند (رسول الله) والأصل في المسند التنكير؛ لأنه محكوم به، والحكم بالمعلوم لا يفيد؛ إذ مقصود الخبر إثبات حكم مجهول لذات معلومة، وإنما عرف هنا لأمر زائد على المقصود، وهو إفادة السامع حكمًا بأمر معلوم؛ كي يتأكد عنده ثبوت المسند للمسند إليه، قال السكاكي: "وإذا قلت: زيد أخوك، قلته لمن يعلم زيدًا، وهو كالطالب أن يعرف حكمًا له، وأنه معتقد أن له أخًا، لكن لا يعلمه على التعيين"(١)، فالمسند إليه وهو (محمدًا) معلوم، ومعلوم أن لله رسول كذلك؛ فالجملة عينته وحددته، ويجعل الخطيب هذه النكتة صدر حديثه عن تعريف المسند، فيقول: "وأما تعريفه فلإفادة السامع إما حكمًا على أمر معلوم له بطريق من طرق التعريف بأمر آخر معلوم له كذلك...تفسير هذا أنه قد يكون للشيء صفتان من صفات التعريف، ويكون السامع عالمًا باتصافه بإحداهما دون الأخرى، فإذا أردت أن تخبره بأنه متصف بالأخرى تعمد إلى اللفظ الدال على الأولى، وتجعله مبتدأ، وتعمد إلى اللفظ الدال على الثانية وتجعله خبرًا، فتفيد السامع ما كان يجهله من اتصافه بالثانية"(٢).

سر إضافة الرسول إلى الله:

ومن أسرار تعريف المسند بإضافته إلى الله إظهار معنى أنه مرسل من قبل الله إلى

(١) مفتاح العلوم، ١/ ٢١٣.

(٢) الإيضاح، ١/ ٩٧.

الناس، وإرساله من قبل الله معناه: أن الله أيده بآيات تدل على صدقه، وأنه كلفه بشريعة يبلغها إلى الناس، فعلى الناس تصديقه، واتباعه بلا قيد أو شرط؛ لأن كل ما يخبر به حق وصدق وعدل.

وكانت الإضافة إلى اسم الجلالة دون غيره من أسمائه جلَّ وعلا؛ لأن المقام للألوهية وما يجوز في حق الله.

سر تكرار الجملة:

وكرر الجملة تأكيدًا لمضمونها، وزيادة في تعظيمه ﷺ وتمجيده، وزيادة في التنبه إلى دعوته إلى الصلاة، فهي دعوة رسالة سماوية، ووحي إلهي.

مضمون الشهادتين والفرق بينهما:

تتجلى رحمة الله في الشهادتين؛ إذ إنه أخرجنا بهما من الظلمات إلى النور، من ظلمات الكفر، والعبودية، والجهل، والباطل، والظلم إلى نور الإيمان، والحرية، والعلم، والحق، والعدل، وأدخلنا بهما في بستان الدين، وجنة الإيمان، وحوزة الشرع وحمايته.

وقد كررهما مع الجهر بهما لإظهار شهادة الإسلام، ولتعليم أهل الإسلام أن يجهروا بهما، ولا يستخفوا بأي منهما بعد اليوم.

وفي تكافؤ الشهادتين في الأذان من حيث الإخبار عنهما بمادة الشهادة، ومرات التكرار، والجهر بهما بيان أنهما لا ينفكان، وأن إحداهما غير كافية دون الأخرى في باب الإسلام، قال القشيري: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، بذكرنا، فكما لا تصحّ كلمة الشهادة إلا بي، فإنها لا تصحّ إلا بك. ويقال: رفعنا لك ذكرك بقول الناس: محمد رسول الله! ويقال: أثبتنا لك شرف الرسالة"[(١)]، جعلنا اسمك مقرونًا باسمنا، فما ذُكرتُ إلا وذكرت معي، في كلمة التوحيد، والأذان، والإقامة، والتشهد.

إلا أن جملة شهادة التوحيد صيغت بأسلوب القصر لتفرده عز وجلَّ بالألوهية، أما جملة الشهادة بالرسالة فجاءت مؤكدة دون قصر؛ إذ لم تقصر الرسالة عليه ﷺ ،

(١) تفسير القشيري، ٣/ ٧٤٤.

وهذا فرق بين مقام الألوهية، ومقام الرسالة، فلا إله إلا الله، أما محمد ﷺ فهو رسول الله حقًّا، ليس إلهًا، ولا فيه أي صفة من صفات الألوهية، فهو من جملة رسل الله لا ينفرد بالرسالة عن سواه.

إن مضمون الشهادتين يصوغان المرء صياغة جديدة، يقول محمد عز توفيق: "إن «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» اختيار في الحياة، يحدد التصور الذي يعيش به المرء، والسلوك الذي يتصرف به، والنطق بهما يعني تحولًا على المستوى الفكري والواقعي، فبهما يتحدد مصدر التلقي، وبهما تتحدد الغاية والهدف، وتلك الربانية: ربانية المصدر وربانية الغاية، فيعيش العبد بعلم الله (تعالى) المنزل يصوغ تصوراته كما يصوغ تصرفاته"(١).

بل إنهما الإسلام كله؛ فهما أساس الإسلام، شهادة التوحيد؛ معناها: لا معبود بحق إلا الله، فمفادها عبادة الله، والشهادة بالرسالة، مفادها أن تعبد الله بما جاء به رسول الله ﷺ.

لقد خفي على كثير من أبناء المسلمين مضمون الشهادتين، وما علموا أنها فيصل بين الإسلام والكفر، وقد فقه معناهما من دعاهم إليها رسول الله ﷺ لفقههم لمعاني لغتهم ودلالاتها، يقول محمد عز توفيق: "لقد كان الإسلام في بدايته كلمة يقولها الرجل فيصير مسلمًا، أو يعرض عنها فيكون كافرًا، ولا يمكن لكلمة أن تكون فيصلًا بين الإسلام والكفر إلا إذا كان الإسلام نفسه مجموعًا في هذه الكلمة، وما سينزل فيما بعد من أحكام تفصيلًا لما أجمل فيها، لقد كانت البداية التي بدأت بها الدعوة إلى الإسلام، وهي: (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) دليلًا على ما لهاتين الشهادتين من معنى كبير وخطير، يترتب على العلم به، والعمل بمقتضاه فلاح الدنيا والآخرة. والسؤال الذي يعد مدخلًا هنا هو: ماذا فهم العرب عندما خوطبوا بهذه الكلمة ودُعوا إليها؟ وهل كان الرفض الذي واجهوا به هذه الكلمة لمجرد التلفظ بجملتين، أم لما يترتب على ذلك النطق

---

(١) مجلة البيان، مقال د/ محمد عز الدين توفيق، ٩٥/ ٣٢.

من التزامات علمية وعملية؟ لقد كان المتلفظ بالشهادتين في عصر الرسالة يعرف أنه يجتاز عالمًا بأكمله، ويدخل إلى عالم جديد، يجتاز عالم الجاهلية بمبادئه وأخلاقه وعاداته، ويَعْبر إلى عالم الإسلام. إن الرجل العربي أيام البعثة كان يفهم من مدلولات لغته ولذلك حضرت في ذهنه كل المعاني التي يستعمل لها لفظ (الإله) عندما قيل له: (قل لا إله إلا الله)، وكان على بينة من أمره أيضًا. وإن أخطر ما يصاب به هذا الركن الاعتقادي هو: أن يبقى في الناس لفظه، ويضيع معناه أو جزء منه، فيتشوه الباقي، وتختلف الأمة فيه، وهذا ما حصل بالفعل عندما ابتعد المسلمون عن اللغة العربية، وابتعدوا عن الكتاب والسنة، فصاروا ينطقون الشهادتين، ويرددونهما في الأذان والإقامة والتشهد وغيرها، وهم على جهل بمعناها الصحيح؛ فيشهدون دون أن يتبينوا على أي شيء يشهدون؟"[١].

(حي على الصلاة، حي على الصلاة):

بعد أن أثبت القواعد العقلية تأصيلًا، وثبت ذلك بتكرارها، شرع في إثبات القاعدتين السمعيتين، وهما: الامتثال للتكليف، وترتب الجزاء عليه، فجاء قوله: (حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح) بعد ما مضى من أصول العقائد، وهو كما نقله البقاعي عن الإمام العارف ولي الدين الملوي: "أنه يبين أن كون سمعيات التكليف والجزاء آخر قواعد العقائد"[٢].

(حي على الصلاة) نداء تشريف وترفيع؛ إذ إنه يدعونا إلى مناجاته، والوقوف بين يديه، نداء رحمة يطمئن القلب بإجابته، وتسكن النفس بتلبيته.

و (حي على الصلاة) هي مقصد الأذان، فالأذان نداء لإقامة الصلاة، ودعوة لأداء هذه العبادة الجليلة، وقد مهد لهذه الدعوة بكل ما سبق، فبعد أن انتهى من باب: الألوهيات، والنبوات، بدأ في التكليف بالعمل بالدعوة إلى الصلاة، "حي على الصلاة"؛ أي

---

(١) مجلة البيان، مقال د/ محمد عز الدين توفيق، ٩٥/ ٣٢.

(٢) الإيذان، ص ٦١.

أسرعوا إليها وأجيبوا، وجعل النداء إلى الصلاة بعد الشهادة لرسول الله ﷺ بالرسالة؛ لأنها لم تُعرف إلا من جهته، لما كان النداء للدعوة إلى عبادة، بل أعظم العبادات وأشرفها، أعقبها الشهادة له ﷺ بالرسالة؛ إذ إنها من مقتضيات رسالته، فقال: (حي على الصلاة)، ثم بيَّن ما يترتب على إقامتها في الآخرة من الجزاء، فقال: (حي على الفلاح).

وفي النداء إلى الصلاة ـ وهي أعظم شعائر الإسلام ـ جهارًا دليلٌ على أن أهلها أصبحوا غير خائفين من قوى الشرك، بل إنهم يجاهرون بالنداء إلى إقامة شعائرهم.

معنى: (حي):

قال ابن منظور: "و (حَيَّ)، مثَقَّلة، يُنْدَبُ بِهَا ويُدْعَى بِهَا، يُقَالُ: حَيَّ عَلَى الغَداء، حَيَّ عَلَى الْخَيْرِ، قَالَ: وَلَمْ يُشْتَق مِنْهُ فِعْلٌ؛ قَالَ ذَلِكَ اللَّيْثُ، وَقَالَ غَيْرُهُ: حَيَّ حَثٌّ ودُعاء"(١)، فلفظ (حي) موضوع في اللغة لأمرين: للدعاء إلى الشيء، مع الحث عليه، ومعناها كما قال ابن منظور: "حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الفَلاح؛ أَي: هَلُمُّوا إِلَيْهَا، وأَقبلوا، وتَعالَوْا مُسْرِعِينَ"(٢)، وكما نقله الملا القاري عن الطيبي: "قَالَ الطِّيبِيُّ: أَيْ: هَلُمُّوا إِلَيْهَا، وَأَقْبِلُوا عَلَيْهَا، وَتَعَالَوْا مُسْرِعِينَ"(٣)، فهي متضمنة معنيي الإقبال، والتعجيل؛ ولذا أوثرت عليهما، مع ما فيها من معنى الطلب.

سر إيثار التعبير باسم الفعل:

(حي) اسم فعل بمعنى الأمر للإقبال، قال ابن منظور: "وَحَيَّ عَلَى الغَداء والصلاةِ ائتُوهَا، فـ (حَيَّ) اسْمٌ لِلْفِعْلِ؛ وَلِذَلِكَ عُلّق حرفُ الْجَرِّ الَّذِي هُوَ (عَلَى) بِهِ...وَقَوْلُهُمْ: (حَيَّ

(١) لسان العرب، مادة: حيا.

(٢) لسان العرب، مادة: حيا.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٢/ ٥٤٨.

عَلَى الصَّلَاةِ)، مَعْنَاهُ: هَلُمَّ، وأَقْبِلْ...وَالْعَرَبُ تَقُولُ: حَيَّ عَلَى الثَّرِيدِ، وَهُوَ اسمٌ لِفعل الأَمر..."(١).

واسم الفعل: "اسم يدل على فعل معين، ويتضمن معناه، وزمنه، وعمله، من غير أن يقبل علامته، أو يتأثر بالعوامل"(٢).

وسر إيثار التعبير باسم الفعل دون فعل الأمر أن لاسم الفعل مزايا يتطلبها السياق هنا، من هذه المزايا ما بينه عباس حسن بقوله: "ما يمتاز به اسم الفعل: بالرغم من أن شأنه هو ما وصفنا فقد اكتسب بالاستعمال العربي القديم مزيتين ليستا للفعل الذي بمعناه. الأولى: أن اسم الفعل أقوى من الفعل الذي بمعناه في أداء المعنى، وأقدر على إبرازه كاملًا مع المبالغة فيه...الثانية: أنه يؤدي المعنى على الوجه السالف، مع إيجاز اللفظ واختصاره، لالتزامه –في الأغلب – صورة واحدة لا تتغير بتغير المفرد، أو المثنى، أو الجمع أو التذكير، أو التأنيث...ولو أتيت مكانه بالفعل الذي بمعناه لتغيرت حالة الفعل...وبسبب هاتين المزيتين كان استعمال اسم الفعل هو الأنسب حين يقتضي المقام إيجاز اللفظ واختصاره، مع وفاء المعنى، والمبالغة فيه"(٣).

من أسرار التعبير باسم الفعل قصد المبالغة في أداء المعنى؛ فإذا كان الفعل (أقبل) يفيد طلب الإقبال، فإن (حي) يفيد الإقبال الشديد، قال الشيخ/ عضيمة: "معاني أسماء الأفعال أمرًا كانت أو غيره أبلغ وآكد من معاني الأفعال التي يقال: إن هذه الأسماء بمعناها"(٤).

ويفيد مع المبالغة الإيجاز والاختصار في اللفظ؛ إذ إن اسم الفعل يلزم حالة واحدة لا تتغير في النداء على المفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، فيصلح لأداء المعنى

---

(١) لسان العرب، مادة: حيا.

(٢) النحو الوافي، ٤/ ١٤٢، ١٤٣.

(٣) السابق، الصفحة نفسها.

(٤) دراسات لأسلوب القرآن، ٣ . ٤/ ١٠٢.

للجميع دون أن تتغير صورته، فتقول: حي يا رجل، ويا رجلان، ويا رجال على الصلاة، ولو عبرت بـ (أقبل) لما شمل النداء الفرد والجماعة، وللزم تغير حالة الفعل، حتى يشمل النداء المجتمع كله أفرادًا وجماعات، ذكورًا وإناثًا، فنقول: أقبل يا رجل، وأقبلا يا رجلان، وأقبلوا يا رجال.

ومن أسرار التعبير باسم الفعل إفادة الثبوت والدوام، فعبر به ليتشرب طلب الإقبال إلى الصلاة من الاسم ما يحمله من دلالة الثبوت والدوام، كما أنه يتشرب من الفعل معنى الطلب والإلزام، فيجمع بين الأمرين، ويسمى باسم الفعل، ومنها كانت أسماء الأفعال آكد وأبلغ.

ومن أسراره كذلك أن تكون الدعوة بالرفق؛ لأن فعل الأمر فيه معنى الاستعلاء، أما اسم الفعل فإنه لا يظهر فيه معنى الطلب الفعلي الملزم بتنفيذ الأمر، مما يضيف معنى بلاغيا يتناسب مع مقام الدعوة من الله لأعظم شعائر الدين الذي لا يقوم فيه شيء على الإكراه، فالصلاة عبادة عظيمة، والدعوة إليها بهذا الأسلوب تبرز مكانتها العالية، وفي التعبير باسم الفعل كذلك تشريف وتكريم للمسلم؛ إذ إنه يومئ إليه بدخول وقت الصلاة إعلامًا بها، ولا حاجة أن يؤمر أمرًا صريحًا بأدائها.

أسرار التعدية بـ (على):

وتعدى (حي) بـ (على) في (حي على الصلاة)، "أَقُولُ: لَمَّا قِيلَ: حَيَّ؛ أَيْ: أَقْبِلْ. قِيلَ لَهُ: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ؟ أُجِيبَ: عَلَى الصَّلَاةِ"(١).

وقد أبان الأزهري عن معنى (على) هنا بأنها (إلى) بقوله: "ومنه قول المؤذن: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، معناه: عجّل إلى الصلاة وإلى الفلاح"(٢)، وقال ابن منظور بمثل قوله: "وَقِيلَ: مَعْنَاهُمَا: عَجِّلوا إِلَى الصَّلَاحِ وَإِلَى الْفَلَاحِ"(٣)، وذكر القرافي

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٢/ ٥٤٨.

(٢) تهذيب اللغة، ٢/ ٢٠٨.

(٣) لسان العرب، مادة: حيا.

أنها تعدى بالباء كذلك: "و (حي) معناه: الدعاء للشيء، تقول العرب: حي على الثريد؛ أي: أقبل...ويعدى بـ (على) كما في الأذان، وبـ (إلى)، وبـ (الباء)، ومنه الحديث إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر"(١).

(حي) اسم فعل سماعي يعدى بـ (على) في غالب استعمال العرب، وتعديته بـ (على) في لغة العرب دلالة الإكرام والإعزاز للمدعو؛ إن (حي) اسم فعل استعمل مع الدعوة إلى الطعام (حي على الثريد)؛ وما كانوا بأنفتهم، وعزتهم يقبلون دعوة إلا أن يشعروا فيها بمعاني الإعزاز والتكريم؛ لذا كانت التعدية بـ (على) دون (إلى) هو الغالب في استعمالهم؛ حتى لا يجعل الداعي إقبال المدعوين غايته الانتهاء إلى الطعام، وإنما هو إقبال فيه رفعة وسمو، واستعلاء على دنايا النفوس، وهذا سر إيثار تعديتها بـ (على) في لغتهم، إن لغة العرب بقواعدها وجمالها نحت من أخلاق القوم وقيمهم وعاداتهم، لا من لسانهم فحسب، إنها لغة تترجم حياتهم بكل ما فيها من معانٍ، لغة ناطقة بعزة أهلها وأنفتهم، ومن دلائل ذلك تعدية (حي) بـ (على)، ومنه تسميتهم من كانت همته موقوفة على الأكل والشرب، يذهب للمأدبة دون دعوة بأنه (إمعة) "يقول لكل أحد: أنا معك"(٢).

وعديت في الأذان بـ (على) دون (إلى)، بأن يقول: حي إلى الصلاة، وإن صحت التعدية بـ (إلى) لأن مقصد الكلام يهمس بـ (على)، فالتعدية بـ (إلى) تفيد أن المقصود الانتهاء إلى الصلاة، يقول أستاذنا الدكتور الخضري: "وأرى – والله أعلم – أنَّ فعل النداء أو الدعاء حين يُعدَّى بـ«إلى» يكون الغرض حثَّ المنادى على القصد إلى الشيء والانتهاء إليه، على حدِّ ما أشار إليه الراغب: «والدعاء إلى الشيء الحث على قصده»(٣)...وهذا الفرق الدقيق هو الذي من أجله جاءت «إلى» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨]، وهو نداء

(١) الذخيرة، ٢/ ٥٧.

(٢) لسان العرب، مادة: أمع.

(٣) المفردات ٢٤٥.

عام لكل سامع، وإلى عموم الصلوات، حثًّا على القصد إليها، والاتجاه إلى مكان إقامتها في مساجد الله تحصيلاً لفضل الجماعة فيها...وممَّا يشهد لما نقوله وقوع «إلى» في قوله: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ ، فهو حثٌّ على قصد الصلاة والإسراع إلى تلبيتها"[1].

أما سر تعدية (حي) بـ (على) في الأذان فهو ألا يكون الإقبال والإعجال غايته الانتهاء إلى الصلاء، وإنما غايته إقبال المرء عليها بكليته، فلا يشغله شأن عنها، ولا ينشغل بغيرها حتى ينتهي من أدائها على الوجه الأتم الأكمل دون نقص فيها أو خلل، فيقبل إقبالًا يجلل صلاته، ويحتويها، ويستغرق كل أركانها، ويستولي على أذكارها، وأن يقبل عليها بجد ونشاط، ونفس راضية مطمئنة، وهذا ما يمكن أن نلمحه من كلام الزمخشري في تعليله لسر تعدية الفعل (أتى) بـ (على) إذ يقول: "فإن قلتَ لِمَ عُدّي (أتوا) بـ (على)؟...والثاني: أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره"[2].

إن الإقبال على الصلاة بهذا المعنى (حي على الصلاة) يعلي قدر المسلم، ويجعله متمكنًا من صلاته أداءً وخشوعًا، فحرف الاستعلاء فيه حثٌّ على المبالغة في الإقبال على الصلاة بما يغطيها وقتًا وأداءً، وإفراغ النفس لها دون سواها، والتنازل عن كل شيء يشغل عنها.

إن حرف الاستعلاء يجعل الإقبال عليها إقبال المستعلي على فرسه يملك زمامه بيده، يوجهه بإرادته كما يريد، كذلك المصلي أقبل على صلاته بمحض الإرادة والاختيار، والرؤية الواضحة لفرضيتها، وما يجلبه أداؤها من فوز الدنيا والآخرة، إقبال المستعلي لا المتعجل إليها فحسب، إنه إقبال المستعلي بإيمانه، مرتفع الرأس بإجابة دعوة ربه، إنها إجابة تزيد قدر المسلم شرفًا، وتكسبه جلالًا، وتمنحه مجدًا وحمدًا.

---

(١) من أسرار حروف الجر، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

(٢) الكشاف، ٣/ ٣٥٥.

كما يوحي تعدية (حي) بـ (على) أن الدعوة إلى الصلاة دعوة للنشط الذي يأتي الصلاة ممتطيًا صهوة جده وعزمه، كأنه فارس يمتطي صهوة جواده، فلا يقوم لها الكسول الملول الفارغ، فالدعوة إلى الصلاة وإن كانت في ظاهرها دعوة عامة يسمعها الجميع، لكنها فعليًّا دعوة خاصة يستجيب لها أهل العزم والحزم، والهمة والنشاط.

إن هذا الاستعلاء ينعكس أثره على نفس المصلي، فيخرج منها مستعليًا على الهوى والمنكر والشهوات والباطل، ستنهاه صلاته عن هذا، سيخرج منها وهو ينتظر صلاة أخرى، فالاستعلاء والتمكن يومئ إلى الملازمة والحرص على المستعلي عليه.

إن التعبير (حي على الصلاة) جمع معنى التعجيل بـ (حي)، والاستعلاء والاختيار بـ (على)، ولو كان النداء (حي إلى الصلاة) لحمل التركيب كله معنى التعجيل والإقبال، دون أن يعطي ما أعطاه حرف الاستعلاء.

معنى (أل) في الصلاة:

إن (أل) في (الصلاة) في (حي على الصلاة) للعهد؛ إذ تشير إلى فرد من أفراد الحقيقة، وهي لام العهد العلمي؛ إذ لم يسبق لها ذكر صريح أو كنائي، لكن للمخاطب علم بها لحضور وقتها؛ أي: الصلاة المعهودة المعلومة التي حان موعدها، ومما يؤكد أن (أل) للعهد العلمي قول النبي ﷺ عقب النداء: (والصلاة القائمة)، وأنه لا أذان لفائتة، فالأذان للقائمة التي حضر وقتها، وهي معلومة.

وفي التعبير بـ (أل) إيجاز؛ إذ إن (حي على الصلاة) أوجز من (حي على صلاة الظهر)، وإيحاء بعلم المتلقي بالصلاة المنادى بها، وترابط للمعنى بين المتلقي والمتكلم، وبها أصبح الأذان نمطًا واحدًا لا يتغير من وقت لأخر.

سر التعبير بالإنشاء:

جاءت الدعوة إلى الصلاة (حي على الصلاة) جملة إنشائية، عدل بها الأذان عن الإخبار على غرار سوابقها من الجمل، فلم تأت على نحو: ندعوكم إلى الصلاة، لما تمتاز به الأساليب الإنشائية من الحث والإثارة، ففي الجملة النداء والحث؛ للإقبال والمسارعة، وفيها التحفيز والاستنهاض؛ لتشجيع المتلقين على المبادرة للصلاة دون

تردد، والإعلام والتنبيه بدخول وقت الصلاة حتى أنه لم يعد وقت للتكاسل.

سر تكرار جملة (حي على الصلاة):

وكرر الجملة (حي على الصلاة) زيادة في التنبيه إليها، والدعوة لها، وتأكيد ظهور أمر المسلمين حتى أنهم يجاهرون بالدعوة إلى إقامة الصلاة، وهي أمُّ شعائرهم.

(حي على الفلاح، حي على الفلاح):

معنى الفلاح:

من معاني الفلاح: "النجاة"(١). "والبقاء في النعيم والخير"(٢)، وقال القرافي: "والفلاح في اللغة الخير الكثير، أفلح الرجل إذا أصاب خيرًا "(٣). "والفلاح هو الفوز والظفر"(٤)، وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: "والفلاح: الفوز، والنجاة، وإصابة الخير، قالوا: وليس في كلام العرب كلمة أجمع للخير من لفظة الفلاح"(٥).

معنى (حي على الفلاح):

ومعنى (حي على الفلاح): "هلموا إلى سبب الفوز بالجنة، والاستمتاع بها، وهو صلاة الجماعة"(٦)؛ أي حافظوا على ما فيه فلاحكم ونجاتكم، ويتحقق الفلاح من كون الاستجابة للنداء طاعة لله، وطاعة لرسوله ﷺ.

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: "ومعنى حيَّ على كذا: أي تعالوا إليه...فمعنى حيَّ على الفلاح: أي تعالوا إلى سبب الفوز، والبقاء في الجنة، والخلود في النعيم"(٧).

---

(١) شرح أبي داود، للعيني، ٢/ ٤٢٤.

(٢) لسان العرب، مادة: فلح.

(٣) الذخيرة، ٢/ ٥٧.

(٤) مسند الشافعي ترتيب السندي، ص ١٩٩.

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم، ٤/ ٨٧.

(٦) مسند الشافعي ترتيب السندي، ص ١٩٩.

(٧) شرح النووي على صحيح مسلم، ٤/ ٨٧.

قال ابن منظور: "وَقِيلَ: حَيَّ؛ أَي عَجِّلْ وأَسْرِع عَلَى الْفَلَاحِ، مَعْنَاهُ: إِلى الْفَوْزِ بِالْبَقَاءِ الدَّائِمِ؛ وَقِيلَ: أَي أَقْبِلْ عَلَى النَّجَاةِ؛ قَالَ ابْنُ الأَثير: وَهُوَ مِنْ أَفْلَحَ، كَالنَّجَاحِ مِنْ أَنجَحَ، أَي هَلُمُّوا إِلى سَبَبِ الْبَقَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَالْفَوْزِ بِهَا، وَهُوَ الصَّلَاةُ فِي الْجَمَاعَةِ"(١).

"حي على الفلاح حي على الفلاح؛ أي الخلاص من كل مكروه، والظفر بكل مراد، وقيل: الفلاح البقاء؛ أي أسرعوا إلى ما هو سبب الخلاص من العذاب، والظفر بالثواب والبقاء في دار المآب، وهو الصلاة مطلقًا أو مقيدًا بالجماعة"(٢).

سر الإتيان بـ (حي على الفلاح) بعد (حي على الصلاة):

إن الدعوة إلى الفلاح بعد الدعوة إلى الصلاة فيها ترغيبٌ بعد الطلب، وهما مقصد الأذان، ففي حديث الأعمى، يقول: (وأنا ضرير البصر) أي أعمى. (فهل تجد لي من رخصة)؛ أي في ترك الجماعة. قال: هل تسمع (حي على الصلاة حي على الفلاح)؟ يعني: هل تسمع الأذان؟ وإنما خص اللفظان لما فيهما من معنى الطلب والترغيب(٣).

طلب ثم رغب، فدعا إلى الصلاة بالدعوة إلى الفلاح؛ أي بالغاية منها؛ تحبيبًا وترغيبًا، فرتب الفلاح على الصلاة، وكأنه جعله نتيجة لها، وكأن الصلاة سبب له، فكون الدعوة إلى الصلاة دعوة إلى الفلاح هو أن الصلاة فوز، ونجاة، وبقاء في النعيم، وإصابة للخير.

وموقع (حي على الفلاح) من (حي على الصلاة) موقع الجمل التي تأتي مؤكدة بعد الأوامر والنواهي تأكيدًا للنفوس المستشرفة المتطلعة إلى معرفة علة الأوامر والنواهي، فأتى بعد الطلب ترغيب يبين عما في هذا الطلب من الخير.

---

(١) لسان العرب، مادة: حيا.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٢/ ٥٤٩.

(٣) ينظر: السابق، ٣/ ٨٤٤.

وفي الترتيب كذلك تنبيه على أنه لا فلاح إلا بعد عمل، وأن العمل لك، والفلاح على الله عز وجلَّ، لك أن تسعى، وأن تعمل، وأن تنفذ أوامر الله، ثم بعد ذلك يأتيك ما وعد الله به، فلا فلاح إلا بعد طاعة.

سر تضمين الأذان حي على الفلاح:

وجعل نداء الصلاء متضمنًا الدعوة إلى الفلاح مع اتساع مفهوم الفلاح ليشمل كل فوز ديني ودنيوي؛ لبيان أن الفلاح في الدنيا والآخرة معقود على أن تكون الصلاة مقدمته وسببه؛ لذا قصر المولى الفلاح على أهل إقامة الصلاة في صدر القرآن الكريم بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ – ٥].

معنى (أل) في الفلاح:

(أل)في الفلاح للجنس؛ ولام الجنس هنا تعطي معنى رائقًا هو أن جنس الفلاح بكل معانيه وقت الأذان هو في الإقبال على الصلاة، فلا فلاح على الإطلاق في أي شيء يشغلك عن إجابة النداء؛ فلا خير في عمل يلهي عن الصلاة، ولا يتفلت نوع فلاح إلى أي عمل سوى الصلاة وقت إقامتها؛ لذا لا يجد مؤمن سعادة ولا هناء وقت إقامة الصلاة إلا فيها، وقد جسد النبي ﷺ ذلك بقوله: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»[(١)].

وفي هذا إيجاز ظاهر لا تحيط به العبارة، ولا يكتنهه الوصف، كما أن إيحاءاته تتجاوز حدود البيان، والوعظ، ومن إيحاءاته تسليم المتلقي والمتكلم يقينًا بأن الفلاح في الإقبال على الصلاة، وإنما عرف الفلاح بلام الجنس مع العلم به، زيادة في التوكيد، فالتعريف بلام الجنس يقتضي أن المعرف معروف عند المتكلم والسامع لا يلتبس بغيره، فإذا كان المعنى المراد بالمعرف بلام الجنس معلومًا؛ فإن في تعريفه زيادة توكيد للفظ،

(١) سنن أبي داود، باب: في صلاة العتمة، رقم الحديث: ٤٩٨٥، ٤/ ٢٩٦.

وتقريره وإيضاحه للسامع[1].

إن معنى الجنسية في (أل) يشي كذلك بسلب الفلاح من جميع الأعمال على جلالها وتقدير الإسلام لها؛ أي إذا كنتم في أي عمل فيه نوع فلاح، فهلموا الآن إلى العمل الجامع للفلاح كله وهو الصلاة، فكأن وقت إقامة الصلاة سلب الفلاح من كل عمل فالح وجعله في الصلاة، فصار كل عمل وقتها منزوع الفلاح.

سر تعدية (حي) بعلى دون إلى في (حي على الفلاح):

وسر التعدية بـ (على) هو دلالتها على معنى الاستعلاء، مما يجعل المصلي متمكنًا من الفلاح، مستعليًا عليه، ممسكًا بزمامه، فـ (على) توحي باستعلاء المصلين على الفلاح استعلاء يمكنهم من استيلائهم عليهم، وامتلاكهم له كله، وحيازتهم له جميعه بكل صوره، فالمصلون لا ينتهون إليه، ولا لأجله، ولا ليشملهم، أو يصيبوا منه حظًّا، وإنما ليحيطوا به، ويتمكنوا منه، فلا يفوتهم شيء منه، ولا يكون لغيرهم نصيب منه.

إن (حي على الفلاح) دعوة إلى الصلاة في طيها دعوة؛ إذ إنها لا تجعل الغاية من الأذان أن تأتي إلى الصلاة لتؤديها على أي وجه كانت، وإنما لتؤديها على وجهها الذي أراده الله لها حتى تحقق معنى الفلاح، وتكون الصلاة سببًا في الفوز بجميع المآرب، وإلا فلن يكون فلاح، وساعتها ستكون إجابتك للنداء ناقصة، نقص منها تحقيق (حي على الفلاح)، فلن تحقق لك فلاحًا، كما أنها لن تقبل إذا نقص من قلبك أي معنى من معاني الأذان، كتعظيم الله، وتوحيده، والإيمان برسالة نبيه، أو التخلف عن الدعوة إلى الصلاة، كذلك فإنها لا تحقق ما تهدف إليه من فلاح لو نقص أداؤها عن الوجه المراد، وقد بين الحق هذا المعنى بقوله﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ – ٢] جعل الفلاح لا للمصلين، وإنما للخاشعين فيها، فالفلاح له شروطه واعتباراته، وقد جاءت أوامر الحق بإقامة الصلاة لا بأدائها، ومدح أهلها، ووعدهم بالفلاح لذلك؛ لذا كانت الدعوة في الأذان: (حي على الصلاة، حي على الفلاح) دون

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ١/ ١٥٩.

(إلى) حتى يتحقق معنى التمكن منها خشوعًا وخضوعًا، وأداء وقراءة، وذكرًا، وقيامًا وركوعًا وسجودًا، ولعظم هذه المعاني كانت إجابتها بالاستعانة بالله والتبرؤ من الحول والقوة، فتقول في إجابتهما: "لا حول ولا قوة إلا بالله".

إن (حي على الفلاح) بمثابة العقد المبرم بين الله والعبد، العبد يأتي بالصلاة مستكملًا شروطها وأركانها، والله يحقق وعده له بالفلاح كله مجموعًا، وبهذا يكون العبد مقبلًا على الصلاة على بينة من أمره، مدركًا ما عليه، وما له، ما يقوم به، وما يحصله، ما طلب منه، وما وُعد به، فيستشعر عظمة ما شرع فيه، وعظيم حقه، وعظم من يعبده، كما يستشعر جزيل ثواب ما رتب على ذلك، فيكون ذلك أدعى إلى التمام والكمال في أداء الصلاة، وأرجى لتحصيل ثوابها.

والتعبير بالفلاح فيه إشارة لتحصيل الخير كله في الدنيا، والآخرة كذلك؛ إذ لا فلاح بالدنيا دون الآخرة، فالفلاح لفظ يتضمن فوز الدارين؛ إذ فوز الأولى دون الآخرة لا يعد فلاحًا، وأل فيه جمعت خير الدارين.

الإيجاز:

وبنيت الجملة على الإيجاز بالحذف حذف المضاف (حي على سبب الفلاح) وإقامة المضاف إليه مقامه؛ لدفع توهم أن الصلاة سبب الفلاح فحسب، وإنما يشير حذف المضاف إلى أن المضاف إليه وهو الفلاح عين الفلاح، فالصلاة ليست سبب الفلاح لكنها هي عين الفلاح، ولذيوع أن الصلاة هي عين الفلاح أقامه مقامها في الدعوة إليها، وحذف المضاف، ولم يجعل الدعوة إليها دعوة إلى سبب الفلاح.

وجملة (حي على الفلاح) منزلتها من جملة (حي على الصلاة) منزلة التعليل، فـ (حي على الْفَلَاحِ)؛ أَيْ إِلَى سَبَبِ الْفَلَاحِ وَهُوَ الصَّلَاةُ.

سر تكرار (حي على الفلاح):

ثم كرر (حي على الفلاح) إلحاحًا على هذا المعنى، وبيانًا أنه لا فلاح في أي عمل من أعمال الدنيا يلهي عن الصلاة، فهي الفلاح في وقتها دون ما سواها مما أنت فيه وقت الآذان.

وكرر الدعوة إلى الفلاح كذلك لما ذكره البقاعي بقوله: "ولما كان تطاول الصولة بالإذلال والقهر موجبًا لاستبعاد الإقبال عن كل عمل من أعمال الشرع على سبيل الجهر، أكد هذا الكلام الداعي إلى كل خير لهذا، وللإشارة إلى أنه الحسنة، جدير بالتأكيد، وأهل لأن يعرف بمقدار آثاره، فقال: حي على الفلاح، وفيه إشارة إلى أن الأمر خير، والطريق صعب، فلا بد بالتأهب له بأعظم الزاد، لتحصيل الراحة في المآل والمعاد"(١).

معنى مضمون الحيعلتين، والفرق بينهما:

ومضمون الحيعلتين أمر بالدعوة إلى الصلاة، ثم ترغيب في تلبية النداء، "قال الطيبي: معنى الحيعلتين: هلم بوجهك وسريرتك إلى الهدى عاجلًا، والفوز بالنعيم أجلًا"(٢).

وقد اتفقتا تكرارًا، وصياغة؛ إذ جاء دعاء إلى الصلاة، وإلى ما به فلاحهم، واتفقتا حثًّا وإلهابًا وأمرًا بالمسارعة إليهما، وحملًا على الإجابة.

وإذا كانت الدعوة إلى الفلاح هي عين الدعوة إلى الصلاة فإنه كررها بلفظ آخر يدل على نتيجتها وجزائها ترغيبًا فيها.

فإذا قلت: إذا كان (حي على الفلاح) دعوة إلى الصلاة، وكان المؤمن قد بادر إليها عند سماعه (حي على الصلاح)، فما فائدة: (حي على الفلاح)؟ إن دعوة من بادر إلى الشيء إلى الشيء ذاته بعد تحصيله يعد لغوًا. قلت: زيادة ترغيب للمبادر، وحثًّا واستنهاضًا وترغيبًا للقاعد.

وتباينا في أن (أل) في الصلاة للعهد، و (أل) في الفلاح للجنس، وفي أن (حي على الصلاة) مقدمة لـ (حي على الفلاح)، و (حي على الفلاح) نتيجة لـ (حي على الصلاة).

(الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم):

---

(١) الإيذان، ص ٥٧.

(٢) عون المعبود، ٢/ ١٣٠.

وزاد في صلاة الفجر قوله: (الصلاة خير من النوم)، ويسمى: التثويب، وهو الدعاء إلى الصلاة، قال الزبيدي: "التَّثْوِيبُ: الدُّعَاءُ إِلَى الصَّلاة وغَيْرِهَا، وأَصْلُه: أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا جَاءَ مُسْتَصْرِخًا لَوَّحَ بِثَوْبِهِ ليُرى وَيَشْتَهِرَ، فكان ذلك كالدُّعَاءِ، فسُمِّيَ الدُّعَاءُ تَثْوِيبًا لِذلك، وكُلَّ داعٍ مُثَوِّبٌ. وقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَ الدُّعَاءُ تَثْوِيبًا من ثَابَ يَثُوبُ إِذا رَجَعَ، فهو رُجُوعٌ إِلى الأَمْرِ بالمُبَادَرَةِ إِلى الصَّلاةِ، فإِنَّ المُؤَذِّنَ إِذا قال: (حَيَّ على الصَّلاَةَ)، فَقَدْ دَعَاهُمْ إِليهَا، فإِذا قال بَعْدَهُ: (الصَّلاَةُ خَيرٌ مِن النَّوْمِ)، فقد رَجَعَ إِلى كَلاَمٍ مَعْنَاهُ المُبَادَرَةُ إِليها، أَو هو تَثْنِيَةُ الدُّعَاءِ، أَو هو أَن يَقُولَ في أَذَانِ الفَجْرِ: (الصَّلاَةُ خَيْرٌ مِن النَّوْمِ)، مَرَّتَيْنِ، عَوْدًا على بَدْءٍ"[(١)].

خص صلاة الفجر بالتثويب:

وخص صلاة الفجر بذلك؛ لأنه وقت يكثر فيه الكسل بسبب النوم ولذته، قال العيني: "وخص الفجر به لأنه وقت نوم وغفلة"[(٢)]، فيكون الناس ما بين نائم، وغافل، وكسول، فاستنهضهم بنداء بعد نداء بعد نداء، بـ (حي على الصلاة)، ثم بما هو غاية (حي على الفلاح)، ثم (الصلاة خير من النوم).

وجاءت الجملة خبرية؛ لأنها تحكي واقعًا، كما جاءت اسمية لإفادة الثبوت والدوام لمضمون هذا الحكم، وخلت من المؤكدات؛ لأنها حقيقة مقررة، وأمر بدهي لدى أهل الإيمان، فلذة الصلاة خَيْرٌ مِنْ لَذَّة النوم عِنْدَ العابدين والعارفين، فهي مستراح أهل الإيمان، وقد كان نبينا ﷺ يقول: «يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا»، ولم تلتفت الجملة إلى المنكر لمضمونها حقيقة، أو نزلت المتكاسل منزلة المنكر؛ لأنهم لو ذاقوا النهوض إليها مرة لأيقنوا أن اللذة الحاصلة بالقيام إليها خير من اللذة الحاصلة لهم بالنوم، حتى أنه يصبح بها نشيطًا طيب النفس، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة

(١) تاج العروس، ٢/ ١٠٨.

(٢) عمدة القاري، ٨/ ٨٠.

عليك ليل طويل، فارقد، فإن استيقظ فذكر الله، انحلت عقدة، فإن توضأ، انحلت عقدة، فإن صلى، انحلت عقدة، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[1].

معنى (أل) في الصلاة والنوم:

(أل) في (الصلاة) لام العهد الخارجي الصريح؛ إذ تقدم لمدخولها ذكر صريح في الكلام في قول المؤذن (حي على الصلاة)، و (أل) في (النوم) لام العهد العلمي الحضوري؛ أي اليقظة لصلاة الفجر خير من لذة النوم الحادث الآن.

وفي التعريف بها في الموضعين إيجاز يتلاقى مع الإيجاز بحذف المضاف الذي بنيت عليه الجملة، وإيحاء بأنها قضية مقررة بين المتكلم والمتلقي سيقت للإيقاظ، ولمزيد التنبيه فقط لا لإنشائها في نفوس المتلقين، كما توحي بالترابط الفكري والعقدي بين المتلقي والمتكلم، والتماسك بين أجزاء الجملة.

سر بناء الجملة على الإيجاز:

وبنيت الجملة على الإيجاز بالحذف على تقدير: التَّيَقُّظُ لِلصَّلَاةِ خَيْرٌ مِنْ الرَّاحَةِ الْحَاصِلَةِ بِالنَّوْمِ[2]، أو على تقدير: اليقظة لأداء الصلاة خير من الراحة التي تحصلونها بالنوم، أو من لذة النوم، ليعطي الحذف معنى العموم؛ لعموم خيرية الصلاة بكل ما فيها من اليقظة لها، وأدائها، وقرآنها عن النوم بكل ما فيه من لذة وراحة ونعيم، فليست اليقظة للصلاة خير من اللذة الحاصلة بالنوم فحسب.

وجه كون النوم خيرًا: ما قاله البقاعي: "ولما كان المدعو قد يكون نائمًا، وكان النوم قد يكون خيرًا، إما بأن يكون القصد به راحة البدن للتقوي على الطاعة، أو يكون للتخلي عن المعصية، وكان أكثر ما يكون ذلك في آخر الليل كان التثويب خاصًّا بأذان

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: التهجد، باب: عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل، رقم: ١١٤٢، ٢/ ٥٢.

(٢) ينظر: حاشية العدوي، ١/ ٢٥٦.

الصبح، فقال فيه: (الصلاة) التي هي أعظم الفلاح، ومن أعظم مقاصد هذا الأذان الإعلام بوقتها، والدعاء إليها (خير من النوم)"[١].

سر التعبير بأفعل التفضيل:

التفضيل يثبت الصفة بين الطرفين، ويجوب زيادتها للأول، وينفي زيادتها عن الثاني، فهو هنا يوجب خيرًا زائدًا في الصلاة عن الخير الحاصل بالنوم.

والتفضيل (خير) بين الصلاة والنوم يثبت أن في النوم خيرًا، فهو مما امتن الله به على خلقه، قال تعالى﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩] راحة لأبدانكم، وسكونًا لأنفسكم، وذهابًا لتعبكم، وآية من آيات اقتداره، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣]، فقد فرضه الله فرضًا لما فيه من منافع للخلق، ففيه راحة أبدانهم، والتقاط أنفاسهم[٢].

إن في النوم خيرًا بما فيه من راحة البدن ليقوى على طاعة الله، وفيه الكف عن المعصية، وسكون النفس، لكنَّ الصلاةَ فيها خيرٌ أكثر مما في النوم بكل ما فيه من راحة وسكن وهناء وصلاح بال.

وخص صلاة الصبح بذلك دون سائر الصلوات الخمس؛ لأنها وقت منام الناس، ولم يجعل نداء من نداءات الصلاة مشتملًا على (الصلاة خير من العمل)؛ لأنه قد أشار إليها بـ (حي على الفلاح)؛ أي فلاح أكثر وأعم مما أنتم فيه، ولأنه لا مفاضلة بين الصلاة والعمل أيًّا كان مهما حصل به من مكاسب ومنافع، كما كان في النوم خير لحجزه الإنسان عن المعاصي، أو لاختلاف المفضول في الجملتين، فالمفضول في جملة (الصلاة خير من النوم) لا يتخلف أحد من عموم المتلقين من الإقرار في أن في النوم راحة؛ فلذا خاطبهم بذلك، أما العمل فلا يجمع عموم المتلقين على خيريته؛ إذ إن في الناس من يفضل الراحة على العمل، فإذا قيل له (الصلاة خير من العمل) لم يكن لهذا

---

(١) الإيذان، ص ٥٧، ٥٨.

(٢) ينظر: الواو ومواقعها في النظم القرآني، ص ١٩٧، ١٩٨.

القول وجه، أو خلا النداء لسائر الصلوات مما ورد في صلاة الصبح؛ لأنها قضية مقررة معلومة لا تحتاج إلى ذكر؛ لذا فإنها لم تذكر في الأذان لأي صلاة، وإنما ذكرت في صلاة الصبح؛ لأن الناس نائمون فيحتاجون إلى مزيد تنبيه، وتلطف في الدعوة، أما غيرها من الصلوات فلا تحتاج أكثر من الإعلام بدخول الوقت؛ لأن الأذان يدرك الناس وهم في أعمالهم ولا حاجة بهم إلى الإعلام بأمر مقرر عقيدة ويقينًا في نفوسهم أن الصلاة خير مما هم فيه أيًّا كان.

سر التعبير بخير:

واختار للتفضيل (خير) بوقعها الندي بدلًا من (أفضل) لما توحي به كلمة خير من وقع محبب إلى النفوس، ولما تبعثه من البشر والأمل، والفوز والفرج، قال الراغب: "الخير ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلًا والعدل والفضل والشيء النافع، وضده الشر. قيل: والخير ضربان: خير مطلق وهو أن يكون مرغوبًا فيه بكل حال، وعند كل أحد"[1]، ففي اصطفاء هذه اللفظة زيادة ترغيب في اليقظة للصلاة.

والمراد بالتفضيل في (الصلاة خير من النوم) التفضيل في المنافع الحاصلة بين الأمرين، فالقيام للصلاة منفعة خير من المنفعة الحاصلة بلذة النوم، لا بين الصلاة والنوم.

والحكم معلوم إلا أن التفضيل يعزز الفكرة ويقويها بأن القيام للصلاة هو الخيار الأفضل حتى في حالة الراحة واللذة الموجودة بالنوم، والمقابلة بين الصلاة والنوم ساعدت في توضيح المعنى بشكل أكبر تأثيرًا على المتلقي.

قد قيل: إن قول المؤذن: (الصلاة خير من النوم) ليست في أذان الصبح، وإنما هي في أذان الليل؛ أي قبل أذان الصبح؛ أي صلاة التهجد خير من النوم، وحجتهم أنه لا مفاضلة بين صلاة الفريضة والنوم، والخيرية إنما تُقال في باب الترغيب. فقالوا: هذا أيضًا يرجِّحُ أنَّ المراد بالأذان الأذان في آخر الليل، قال البكري: "قوله: (الصلاة خير من

---

(١) المفردات، ١/ ١٦٠.

النوم) فيه أنه لا مشاركة بين الصلاة والنوم؛ لأنه مباح وهي عبادة، إلا أن يقال: إنه قد يكون عبادة كما إذا كان وسيلة إلى تحصيل طاعة أو ترك معصية، أو لأنه راحة في الدنيا، والصلاة راحة في الآخرة، والراحة في الآخرة أفضل، أو أن في الكلام حذفًا؛ أي اليقظة للصلاة خيرٌ من راحةِ النوم، فالمفاضلة بين اليقظة والراحة لا بين الصلاة والنوم"[(١)].

فقد خرج التفضيل على أكثر من وجه حتى تستقيم المفاضلة، منها: أن النوم قد يكون عبادة، أو المفاضلة بين راحة الدنيا التي تكون بالنوم، وراحة الآخرة التي تحصل بالصلاة، أو تقدير محذوف، فتكون المفاضلة بين المحذوفين اليقظة للصلاة وراحة النوم.

ولو أنه عاد إلى النظم القرآني لوجد أنه لا يخفى في الرد عليهم أن الخيريَّة قد وردت في الذكر الحكيم مع أوجب الواجبات، قال تعالى﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف: ١١]، فذكر الله الإيمانَ والجهادَ بأنه خير؛ أي: خيرٌ لكم مما يُلهيكم من تجارتكم، والخيريَّة هنا بين واجب وغيره.

وقال تعالى في صلاة الجمعة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الجمعة: ٩]، أي: خير لكم من البيع، ومعلومٌ أن الحضور إلى صلاة الجُمعة واجب، ومع ذلك قال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ، ففاضل بين واجبٍ وغيره.

إن الصلاة خير من النوم الذي شرعه الله وأراده لا فيما سوى ذلك، ونداء المؤذن: (الصلاة خير من النوم) هو لهؤلاء الذين ناموا نومًا صحيحًا فيه امتثال لأمر الله، وتقديرًا لإنعامه بالليل؛ هؤلاء هم من يمتثلون لها، فيستيقظون، وتلهمهم فيتحفزون، ويستجيبون، إنها ليست دعوة لساهر استبدل نهاره بليله، ولا لمن ملأ ليله بالمعصية ثم

(١) إعانة الطالبين، ٣/ ٢٣٦.

نام، فإنه إن كان نائمًا لا توقظه هذه الجملة، ولا لمضمونها يستجيب، ولا تحفزه إن كان يقظًا.

من لم يكن في نوم فيه خير وقت الأذان قلما يستجيب، إنما يستجيب من كان وقت النداء في نوم شهد الله له بالخير، فلا تظنن أن الصلاة يأتي إليها اليقظ الساهر المنتبه، إنما يأتي إليها من نبهه الله، وأيقظ عقله وقلبه نداء الحق.

وجملة (الصلاة خير من النوم) ليست ترغيبًا لكل أحد، إنما هي ترغيب لمن يحكم موازين الشرع، ويقدرها، ويسلم بأن كل وحي إلهي، أو بيان نبوي، أو تشريع حق لا مراء فيه؛ فلذا فإنه ينهض ولو وجد في النوم راحة ولذة، ولا حاجة به إلى توكيد الجملة، أما من لم يحكم موازين الشرع فلا يسلم بمضمون هذه الجملة؛ لذا فإنه لن يستجيب، ولن ينهض، ولو جاءت الجملة مؤكدة بكل ألوان المؤكدات، مقسمًا عليها بأغلظ الأيمان.

سر تكرار الجملة:

وكرر (الصلاة خير من النوم) لإيقاظ النائم، ولمزيد التأكيد على هذه القضية التي تستدعي ذلك؛ لما يجده النائم من لذة النوم، وهناء الراحة، ومشقة القيام للوضوء والصلاة.

(الله أكبر، الله أكبر):

سر الإتيان بهما بدءًا وانتهاءً بيان أنهما ملاك الأمر، وجماع الدعوة إلى كل العبادات، فمن أجل تحقيقهما والإيمان بهما شرعت جميع العبادات، كما أن استحضارهما هو الداعي إلى إجابة الداعي إلى الصلاة رغبة ورهبة، واستحضار كبره وعظمه الذي بهما كان جهر المسلمين بإقامة شعائرهم.

وبدء الأذان وختمه بالتكبير إشارة إلى أن الله تعالى أكبر وأعظم من أن يقدر أحد على أن يقدره حق قدره، وإلى مثل ذلك يشير التكبير في الصلاة[1]، فـ (الله أكبر الله

(١) ينظر: الإيذان، ص ٦١.

أكبر) كان افتتاح الأذان وختامه؛ ليرسخ في وجدان الناس وعقولهم أن الله أكبر من كل ما يشغلهم عن دعوته، وتلبية ندائه.

أو أن ختم الأذان بالتكبير هو معنى تعظيم الله على ما دعانا له، وهدانا إليه، فهو في معنى قوله ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٥].

لم يربع التكبير انتهاءً كما ربعه ابتداء لعدم الحاجة إلى ذلك بعد أن تم الأمر، فالمتلقي أول الأذان مشغول، غافل فنُبه بتكرار التكبير، أما في آخر الأذان فقد تنبه ووعى بما مضى، فلا حاجة للتكرير، فالمقامان مختلفان، ولكل منهما مقتضى.

(لا إله إلا الله):

ختم بالتكبير والتهليل تناسبًا بين الانتهاء والابتداء، قال الملا القاري: "الله أكبر الله أكبر، كرره فيما ختم به اقتصارًا، لا إله إلا الله ختم به إشارة إلى التوحيد المحض اختصارًا، وليوافق النهاية والبداية، إيماء إلى أنه الأول والآخر"(١).

فنهى بجملة التوحيد (لا إله إلا الله)؛ لبيان أنه لا يقبل عمل دونها، ولم يكررها، ولم يؤكدها، كما أنه لم يأت بـ (أشهد) لأنه لا حاجة بعد كل ما مضى إلى توكيدها، فقد أصبحت من الدلائل الظاهرات، والأمور الواضحات البينات من تركها قاتله الإمام من أجلها؛ روي عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»(٢).

و (لا إله إلا الله) هي حقيقة التوحيد، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، فلا مطلوب، ولا مرغوب، ولا مدعو، ولا مأمول إلا الله.

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٢/ ٥٤٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)، رقم الحديث: ٢٥، ١/ ١٤.

كلمة (لا إله إلا الله) هي عنوان الإسلام ومدخله، وينضم إليها ضميمة أخرى، هي محمد رسول الله، فالاعتراف برسالته ﷺ حقيقة لا يكمل دين إلا بها، ولا يتم إيمان إلا بتحقيقها ووجودها، وهي إلى جانب ذلك علامة على صدق التوحيد، فالتوحيد النقي ما جاء عن طريقه ﷺ ؛ لأنه توحيد فعلًا، فقد كشف أن ما دون الله عبد، فليس هناك من تسري إليه صفات الألوهية ألبتة، لا ملك، ولا بشر، ولا يكون لأحد من الملائكة أو النبيين أن يزعم لنفسه شيئًا من صفات الألوهية، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، فلا يوصف ملك ولا نبي بشيء من صفات الألوهية.

قال البقاعي: "ولما تم الدين بجملته، وكمل أصلًا وفرعًا، قولًا ونية، وعملًا برمته، علل الدعاء إليه مرغبًا مرهبًا بقوله، مذكرًا بما بدأ الأمر به، ومؤكدًا له، وذلك إثبات الواجبات، ونفي المستحيلات، إعلامًا بأنهما الأصل الأصيل، والعماد الكفيل بنيل كل جميل؛ لأنهما المثيران لاستحضار عظمته التي أظهر بها الدين، وأذلَّ بها المعتدين، بعد أن كانوا على ثقة من أنه لا غالب لهم: (الله أكبر)، ثم أكد لمسيس الحاجة إلى ذلك في الترغيب والترهيب، فقال: الله أكبر، فلما تم الأمر، وجلَّ التشويق والزجر لم تدع حاجة إلى تربيع التكبير هنا، كما كان في الأول، فختم بما بدأ به من التوحيد إعلامًا بأنه لا يقبل شيء من الدين إلا به، مقارنًا له من ابتدائه إلى انتهائه، فقال: لا إله إلا الله، ولما كان ذلك قد وصل إلى حدٍّ لا مزيد عليه، لم يحتج إلى تأكيد حتى، ولا بلفظ الشهادة إعلامًا بأنه ليس وراء هذا إلا السيف لمن توقف عنه، أو عاند فيه"[(١)].

وختم الأذان بالتهليل هو من باب ذكر الله شكرًا له على ما دعانا إليه، وهدانا له، فهي معنى باب قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

---

(١) الإيذان، ص ٥٨، ٥٩.

المطلب الثاني

التحليل البلاغي لصيغة ترديد الأذان

ضممت إلى الأذان إجابة الأذان؛ لأن المسلم مأمور بها سنة عن رسول الله ﷺ، فهي أوسع من الأذان قولًا؛ إذ إن الآتي بالأذان هم المؤذنون، والإجابة لعموم المسلمين.

حكم ترديد الأذان:

يسنُّ لمن سمع المؤذن أن يتابعه، فيقول ما يقوله المؤذن؛ لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: "إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن"(١)، قال الخراشي: "وَيُنْدَبُ حِكَايَةُ الْأَذَانِ لِسَامِعِهِ بِأَنْ يَقُولَ مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ"(٢).

فضل ترديد الأذان:

ورد في ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ أنه سمع النبي ﷺ يقول: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا علي؛ فإنه من صلَّى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة"(٣).

ووجه ترتب هذا الجزاء العظيم على ترديد الأذان ما فيه من توحيد لله، وثناء عليه، قال النووي: "قال القاضي عياض رحمه الله: قوله: ﷺ (إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر)، فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر إلى آخره، ثم قال في آخره: (من قلبه دخل

---

(١) متفق عليه: البخاري، كتاب: الأذان، باب: ما يقول إذا سمع المؤذن، برقم ٦١١، ومسلم، كتاب: الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي – صلى الله عليه وسلم –، ثم يسأل الله له الوسيلة، برقم: ٣٨٣.

(٢) شرح مختصر خليل، للخراشي، ٣/ ١٢٩.

(٣) مسلم، كتاب: الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن، برقم ٣٨٤.

الجنة)، إنَّما كان كذلك؛ لأن ذلك توحيد وثناء على الله تعالى، وانقياد لطاعته، وتفويض إليه لقوله: لا حول ولا قوة الا بالله، فمن حصل هذا، فقد حاز حقيقة الإيمان، وكمال الإسلام، واستحق الجنة بفضل الله تعالى"[١].

إن ترتيب الوعد بالجنة على ترديد الأذان يرغب المسلم في سماع الأذان، وترديده، يسمع، فيردد، فتزداد منافذ الإدراك والتدبر إلى سماع، وقول، فيتسرب التدبر إلى قلبه منهما، وهذا ما عناه الشرع بالسماع والقول هو أن يستجيب القلب ويتدبر.

سر الأمر بترديد المسلم للأذان:

إن أمر رسول الله ﷺ المسلم بترديد الأذان، وأن يقول مثلما يقول المؤذن يحمل دلالة صريحة على أن الأذان يتجاوز في مقاصده الإعلام بدخول وقت الصلاة إلى كونه عبادة، وذكرًا يحمل للمسلم رسالة يسعى إلى ترسيخها فيه، فسر الأمر بترديد الأذان ومحاكاة المؤذن هو تنبيه للغافل، وزيادة تأديب وتثبيت للقائم، وتشويق للمقبل، وتزهيد فيما سوى الدعوة للمعرض، ولفت إلى عظيم المقام، وفي امتثال المسلم بالنطق به إيذان منه باعتقاده، وإظهاره، وإذعانه لمراده[٢]، قال الشنقيطي: "وَمِنْ هُنَا أَيْضًا نُدْرِكُ السِّرَّ فِي طَلَبِ السَّامِعِ مُحَاكَاةَ الْأَذَانِ تَبَعًا لِلْمُؤَذِّنِ؛ لِيَرْتَبِطَ مَعَهُ فِي إعْلَانِهِ، وَعَقِيدَتِهِ، وَشُعُورِهِ...تُعْتَبَرُ مُحَاكَاةُ الْمُؤَذِّنِ رَبْطًا لِسَامِعِ الْأَذَانِ، وَتَنْبِيهًا لَهُ لِمَوْضُوعِهِ"[٣]. ليربط السامع بالأذان، ويتجاوب معه في معانيه...وليعلن السامع بترديده رضاه به، وموافقته له فيه، وكأنه يقول: نعم، الله أكبر، أصدق أن الله أكبر، فيكون تكراره مزيد تأكيد لهذه الحقائق التي يصدع بها المؤذن.

---

(١) شرح النووي على مسلم، ٤/ ٨٨.

(٢) ينظر: الإيذان، ص ٥٩.

(٣) أضواء البيان، ٨/ ١٤٩، ١٥٠.

فبترديد الأذان تشترك كل منافذ الإدراك والوعي في وعي الأذان؛ إذ يسمع المرء الأذان بقلبه وأذنه، وينطق به فؤاده ولسانه، فيزيد تدبره لمعانيه، فيحمله ذلك على الإجابة حملًا، وينزع عنه الغفلة نزعًا، ويطرد عنه الشيطان رجمًا.

وقت ترديد الأذان وكيفيته:

يكون عند سماع الأذان، عقيب قول المؤذن، يتابعه جملة جملة لقوله ﷺ: (إذا سمعتم النداء، فقولوا مثل ما يقول المؤذن)، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: "قوله: (ما يقول) قال الكرماني: "قال: (ما يقول)، ولم يقل: مثل ما قال؛ ليشعر بأنه يجيبه بعد كل كلمة، مثل كلمتها"، ثم قال: (قلت والصريح في ذلك ما رواه النسائي من حديث أم حبيبة: (أنه ﷺ كان يقول كما يقول المؤذن حتى يسكت)[١]، (فلو لم يجاوبه حتى فرغ استحب له التدارك إن لم يطل الفصل)[٢].

قوله: (مثل ما يقول) يشير إلى أن السامع يجيب الأذان جملة جملة بعد فراغ المؤذن وسكوته من كل جملة.

والفاء في قوله: (فقولوا) تلفتنا إلى أنه يجب على السامع أن يتوقف عن قوله الذي كان فيه أيًّا كان شأنه ووصفه إلى أن متابعة المؤذن عقب كل كلمة على الفور، لا بعد أن يفرغ المؤذن من الأذان، قال الإمام ابن الملقن رحمه الله: "يستحب أن يتابع عقب كلِّ كلمة لا معها، ولا يتأخّر عنها عملًا بظاهر فاء التعقيب المذكورة في الحديث"[٣]، كما أنها رتبت المتابعة على قول المؤذن، فلا يسبق المؤذن بكلمات الأذان.

---

(١) فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٩١. والحديث أخرجه أحمد، ٦/ ٣٢٦، وابن ماجه، برقم ٧١٩، وابن خزيمة، ١/ ٢١٥، برقم ٤١٢، وقال محققو المسند، ٤٤/ ٣٥٠، برقم ٢٦٧٦٧: (صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف...).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري، ٢/ ٩١، (قاله النووي في شرح المهذب، بحثًا).

(٣) الإعلام، لابن الملقن، ٢/ ٤٧١.

كما يشير قولـه: (قولـوا) علـى أنـه لا يكفـي أن تسـمع، ولا أن يتجـاوب القلـب مـع الأذان، بـل المـراد أن تـردد بلسـانك مـا يقـول، "فقولـوا التعبـد بـالقول، وعدم كفايـة إمـرار المجاوبة على القلب، فلا بد من القول باللسان"[1].

والسامع يتابع المؤذن فيما يقول؛ أي في اللفظ فقط، وهو معنى المثلية في قوله ﷺ: "مثل ما يقول"، لا كما يقول، فليست المماثلة تامة من جميع الجهات من رفع الصوت وغيره من الهيئات والكيفيات التي يتخذها المؤذن؛ لاختلاف مقصود كليهما، فمقصود المؤذن الإعلام؛ لذا فإنه يرفع به صوته، ومقصود المجيب الذكر، فيكفيه السر أو أخفض الجهر، قال الشوكاني: "ولا يلزم المجيب أن يرفع صوته، أما المؤذن فيحتاج إلى رفع الصوت للإعلام، بخلاف السامع فليس مقصوده إلا الذكر"[2].

و (مثل ما يقول المؤذن) يقتضي المماثلة التامة في اللفظ، إلا ما جاءت السنة ببيانه، وقد جاءت السنة بالمخالفة في الحيعلة بالحوقلة.

كذلك لا تكون المثلية قولًا أجوف، ودندنة فارغة لا يشعر بحلاوتها القلب، ولا يتأثر بها المرء، فهذه إجابة لا تحقق أثرًا، ولا يترتب عليها نفع، فالإسلام ما كان ليأمر المسلم أن يسمع الأذان، ويردده، إلا إذا كان السماع يتجاوز أذنه إلى قلبه، والنطق يتجاوز لسانه إلى كل جوارحه، فإذا قال المرء مثل ما قال المؤذن، لكنه ما قام ملبيًا نداءه، فما فائدة إجابته؟! إنما المراد أن يقول المرء باللسان، ويستشعر القلب، وتمتلئ النفس، وتنفعل الجوارح بنداء الحق، فيتوجه إلى الله كلية، فإذا كبر خلف المؤذن استشعر عظمة الله، وأنه أكبر من كل كبير وعظيم عنده اعتقادًا، أو حسبانًا، حسًّا أو معنى، فإذا تشهد جدد العهد بالإيمان مع الله، فإذا سمع الحيعلتين تهيأ لإجابة هذا النداء، ساعتها سيدرك أن الأذان ليس كلمات تقال؛ لذا كان الأمر بالإصغاء إليه وترديده؛ ليستشعر الوجدان والروح والقلب والحس هذه المعاني الإيمانية، فما يكاد المؤذن يفرغ من الأذان

---

(١) نيل الأوطار، للشوكاني، ١/ ٥٥٠.

(٢) نيل الأوطار، للشوكاني، ١/ ٥٥٠.

حتى يكون المسلم متأهبًا مستعدًا، نفض عن قلبه كل ملهيات الدنيا، وغسل يده من لعاعاتها، وجمع عقله وقلبه، وأفرغ نفسه، وسكب روحه داخل هذه المعاني العظيمة، وهذا ما نشده رسول الله ﷺ من الأمر بترديد الأذان.

صيغة ترديد الأذان:

الأحاديث دالة على سنِّ متابعة المؤذن إلا في الحيعلتين، فيقول السامع: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، للخبر الذي ورد في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبرُ، فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ثم قال: أشهد أنَّ محمدًا رسول الله، قال: أشهد أنَّ محمدًا رسول الله، ثم قال: حيَّ على الصلاة، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: حي على الفلاح، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: الله أكبر الله أكبر، قال: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا الله، من قلبه دخل الجنة"(١).

أما قوله ﷺ: "فقولوا مثل ما يقول المؤذن" أوجب الصيغة التي يردد بها المسلم، وهي أن يقول مثل قول المؤذن، وتخريج ذلك، ودفع تعارضه مع الحديث السابق، أن رسول الله ﷺ أوجب ترديد قول المؤذن فيما يكون ذكرًا، وعبارات الأذان كلُّها ذكر، يشترك السامع والمؤذن في ثوابها، إلا في الحيعلتين، فإنَّها نداء ودعاء، وذلك يحصل من المؤذن، أما المجيب فلا ينادي أحدًا، وإلا كان الناس كلهم دعاة.

تحليل صيغة ترديد الأذان:

وترديد الأذان كالأذان لفظًا لفظًا، قال الخراشي: "وَيُتَابِعُهُ عَلَى الْمَشْهُورِ لِمُنْتَهَى لَفْظِ الشَّهَادَتَيْنِ؛ لِأَنَّ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّشَهُّدَ لَفْظٌ هُوَ فِي عَيْنِهِ قُرْبَةٌ؛ لِأَنَّهُ تَمْجِيدٌ وَتَوْحِيدٌ"(٢)،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، برقم ٣٨٥، ١/ ٢٨٩.

(٢) شرح مختصر خليل، للخراشي، ٣/ ١٢٩.

إلا في الحيعلتين (حي على الصلاة، حي على الفلاح) نردد بالحوقلة (لا حول ولا قوة إلا بالله) كما بيّن حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عنه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

سر المخالفة في إجابة الحيعلتين:

إن ترديد الأذان قربة يبتغي بها المسلم الأجر، فكل ألفاظه ذكر إلا الحيعلة؛ فإنها دعاء إلى الصلاة، والسامع ليس بداع إليها، فإعادته لها عبث؛ لذا كانت المخالفة فيها إلى ما هو ذكر وقربة، ودعاء ورجاء، وكنز من كنوز الجنة، وهو قوله: (لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ) عوضًا للسامع عما فاته من ثواب الحيعلة، يقولها على سَبِيل الطَّاعَة وَسُؤَال الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ[1]، قال الخراشي: "وَالْحِكْمَةُ فِي الْإِبْدَالِ أَنَّ غَيْرَ الْحَيْعَلَتَيْنِ مِنْ أَلْفَاظِهِ ذِكْرٌ يُفِيدُ حَاكِيهِ الثَّوَابَ كَالْمُؤَذِّنِ، وَالْحَيْعَلَةُ دُعَاءٌ إلَى الصَّلَاةِ وَالْفَلَاحُ لَا يَحْصُلُ الْأَجْرُ فِيهِ إلَّا بِالْإِسْمَاعِ، وَذَلِكَ لِلْمُؤَذِّنِ دُونَ الْحَاكِي، فَأُمِرَ الْحَاكِي بِتَعْوِيضِهَا بِالْحَوْقَلَةِ الَّتِي يُؤْجَرُ قَائِلُهَا أَعْلَنَهَا أَوْ أَخْفَاهَا، وَلِمُنَاسَبَتِهَا دُعَاءَ الْمُؤَذِّنِ، فَإِنَّ مَعْنَاهَا: التَّبَرِّي مِنْ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ عَلَى إتْيَانِ الصَّلَاةِ وَالْفَلَاحِ إلَّا بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ، وَهِيَ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: (أَنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ)؛ أَيْ: أَجْرُهَا مُدَّخَرٌ لِقَائِلِهَا كَمَا يُدَّخَرُ الْكَنْزُ"[2].

وقيل: لا مانع من أن يقول المجيب: (حي على الصلاة، حي على الفلاح)، ويحصل له الثواب لامتثاله الأمر، وعلى اعتبار أن ترداد الحيعلة يمكن أن يزداد به استيقاظًا وإسراعًا إلى القيام إلى الصلاة، إذا تكرر على سمعه الدعاء إليها من المؤذن، ومن نفسه؛ فيكون المجيب داعيًا لنفسه، محركًا منها السواكن، مخاطبًا لها[3].

---

(١) ينظر: فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٩١، والإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن، ٢/ ٤٧١، وشرح منتهى الإرادات، ١/ ٣٣٠.

(٢) شرح مختصر خليل، للخراشي، ٣/ ١٢٩.

(٣) ينظر: فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٩١.

معنى: (لا حول ولا قوة إلا بالله):

الحَوْقَلَةُ: لَفْظَةٌ مَبْنِيَّةٌ مِنْ (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ)...قَالَ ابْنُ الأَثير: هَكَذَا ذَكَرَهَا الْجَوْهَرِيُّ بِتَقْدِيمِ اللَّامِ عَلَى الْقَافِ، وَغَيْرُهُ يَقُولُ: الحوْقَلَةُ، بِتَقْدِيمِ الْقَافِ عَلَى اللَّامِ، وَالْمُرَادُ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ: إِظهار الْفَقْرِ إِلى اللهِ بِطَلَبِ المَعُونة مِنْهُ عَلَى مَا يُحاوِلُ مِنَ الأُمور وَهِيَ حَقِيقة العُبودِيّة(١).

ورجح النووي الحوقلة على الحولقة بقوله: "وَيُقَالُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ قَوْلِهِمْ: (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ) الْحَوْقَلَةُ هَكَذَا قَالَهُ الْأَزْهَرِيُّ، وَالْأَكْثَرُونَ، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْحَوْلَقَةُ، فَعَلَى الْأَوَّلِ وَهُوَ الْمَشْهُورُ الْحَاءُ وَالْوَاوُ مِنَ الْحَوْلِ، وَالْقَافُ مِنَ الْقُوَّةِ، وَاللَّامُ مِنَ اسْمِ اللهِ تَعَالَى، وَعَلَى الثَّانِي الْحَاءُ وَاللَّامُ مِنَ الحول، والقاف من الْقُوَّةُ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى لِئَلَّا يُفْصَلَ بَيْنَ الْحُرُوف"(٢).

معنى الحول والقوة:

تعددت تفسيرات العلماء في معنى الحوقلة، فرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنه قَالَ: مَعْنَاهُ: لَا حَوْلَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ إلا بِعِصْمَةِ اللهِ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ إلا بمعونته(٣).

وقال الإمام النووي: "قال أبو الهيثم: الحول الحركة؛ أي لا حركة ولا استطاعة، إلا بمشيئة الله...وقيل: لا حول في دفع شر، ولا قوة في تحصيل خير إلا بالله"(٤)، وقيل: الحول معناه: المحاولة والتحيل، والقوة معناها: القدرة، ومعنى الكلام: لا حيلة لنا، ولا قدرة على شيء إلا بقدرة الله تعالى ومشيئته(٥).

---

(١) لسان العرب، مادة: حلق.

(٢) شرح النووي على مسلم، ٤/ ٨٧.

(٣) لسان العرب، مادة: حلق.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم، ٤/ ٨٧.

(٥) ينظر: الذخيرة، ٢/ ٥٥.

فإجابة المؤذن عند الحيعلة بالحوقلة هو بيان من العبد أنه يعلم أن الأمر عظيم، وأنه لا يقوى على إقامة الصلاة، ولا تحصيل أسباب الفلاح إلا بحول الله وقوته، فهو يتبرأ من حوله وقدرته إلا بحول الله وقوته، ويسأل ربه العون على ذلك.

إشارات الحوقلة ودلالاتها:

١ ـ إعلان العبد ضعفه وعجزه، واستكانته بين يدي الله، وطلبه العون على إجابة النداء، فكأنه يقول: أستعين بالله على إجابة النداء.

٤ ـ الاعتراف بعظم الدعوة وثقلها، وأن العبد ضعيف لا طاقة له عليها إلا بقوة الله، قال الملا القاري: "قال الطيبي: إن الرجل إذا دعا بحيعلتين كأنه قيل له: أقبل بوجهك وشراشرك[١] على الهدى عاجلًا، والفلاح آجلًا، فأجاب بأن هذا أمر عظيم وخطب جسيم...إذا وفقني الله بحوله وقوته لعلي أقوم بها"[٢].

٣ ـ الالتجاء إلى الله تعالى، واعتماد القلب عليه، فلا حول ولا قوة للعبد إلا به سبحانه، قال البقاعي: "سؤال المعونة على تلك الأفعال الكرام، تبروًّا من القدرة على شيء بغير تقدير الله، ردًّا للأمر إلى أهله، وأخذًا له من معدنه وأصله"[٣].

٤ ـ العزم على الإجابة، لكن بعد أن يستعين العبد على ذلك بالله؛ أي سمعنا وأطعنا، لكن نسأل الله العون.

٥ ـ إعلان من العبد بقوته على إجابة النداء بقوة الله، والعجز عنها دونه، فكأن المرء يعلن أنا أجيب هذا النداء بحول الله وقوته، وليس لي حول ولا قوة إلاّ بالله تعالى.

تحليل الصيغة:

صيغت الجملة بأسلوب القصر لتأكيد هذه الحقيقة بقصر الحول والقوة على كونها بالله، وأتى بها في طريق النفي والاستثناء ليكون النطق بها على هذا النحو إعلانًا برسوخها

---

(١) شراشر: يُقَالُ: أَلقى عَلَيْهِ شَرَاشِرَهُ؛ أَي نَفْسَهُ حِرْصًا وَمَحَبَّةً. لسان العرب، مادة: حلق.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣/ ١١٠.

(٣) الإيذان، ص ٥٩.

في ضمير قائلها.

(لا) لنفي الجنس، ونفي الجنس فيها حقيقة لا ادعاء يستغرق نفي كل حول وقوة، ونكر حول وقوة لإفادة العموم؛ أي نفي أي حول، وأي قوة من أحد إلا بالله، وعطف القوة على الحول ليفيد استواؤهما في النفي، وكرر (لا) بعد العطف لينفي كل واحدة منهما على حدة، ولولا (لا) لفهم أن المعنى نفي الحول والقوة مجتمعين، وأنهما يكونان على سبيل الانفراد؛ أي انفراد كل واحدة منهما، فكانت (لا) أبلغ في تحديد المراد، وهو نفي كليهما تمامًا.

والباء في قولنا: (إلا بالله) تفيد أن العبد يثبت لنفسه حولًا وقوة مستمدة من الله، وعبر باسم الجلالة الله تربية للمهابة، وتأكيدًا وتقوية للحكم؛ إذ إنه الاسم الجامع لجميع مظاهر الجلال والكمال، والقوة والقدرة.

والجملة بها من مظاهر التناسب وملائمة المقام، والاتساق مع الغرض ما يجعل الإجابة بها، وعدم متابعة المؤذن فيما يقول هو عين البلاغة وعمودها، فالحيعلتان دعوةٌ للناس للمجيء لأداء الصلاة، وللمجيء لتحصيل ثوابها، ففي إجابة ذلك بالحوقلة براءة من الحول والقوة على تحقيق ذلك إلا بتوفيق الله، وطلب للعون من الله على تحقيقه، وكأن المجيب يقول: أجيبك أيها المنادي، باعتمادي على حول الله وقوته؛ إذ لا قدرة لي على عمل إلا بعونه، ففيها اعتمادٌ على الله، وحسنُ توكلٍ، وبيان ذلك أن الإنسان قد يعزم على فعل شيء فتقعد به إراداته وقوته، يقعده عارض أو طارئ من مرض، أو همٍّ، أو وسوسة؛ فلا يمكن للإنسان أن يحصل خيرًا، أو يدفع شرًّا إلا بالله.

صيغة ترديد التثويب (الصلاة خير من النوم):

إذا قال المؤذن: (الصلاة خير من النوم)، قال المجيب: (صدقت وبررت)، قال النووي: "وَإِذَا ثَوَّبَ الْمُؤَذِّنُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، فَقَالَ: الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّوْمِ، قَالَ سَامِعُهُ: صَدَقْتَ وَبَرَرْتَ، هَذَا تَفْصِيلُ مَذْهَبِنَا"(١)، أو يقول: (صدق الله ورسوله...الصلاة خير من

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، ٤/ ٨٨.

النوم)، فيجمع بين إجابة المؤذن بأن قال مثل ما يقول، وبين تصديقه فيما أخبر به.

ونردد الصلاة خير من النوم كما هي لقول النبي ﷺ مثل ما يقول المؤذن، إلا في الحيعلتين، فنقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله" لثبوته بصحيح مسلم في حديث عمر بن الخطاب.

ويمكن أن نقول: (صدقت) وإن لم يرد فيها نص؛ إذ إن (الصلاة خير من النوم) ليست ذكرًا، وقولنا: صدقت نصدقه فيما يقول، وقولنا في الإقامة (أقامها الله وأدامها) دعاء وإن لم يرد فيه نص.

ويكون قوله: (فقولوا مثلما يقول) يستثنى منه ما ليس ذكرًا. ويمكن أن يقول مثل قول المؤذن استنهاضًا لنفسه، وحثًّا لها على اليقظة في الفجر، وعلى الإقامة للصلاة.

لقد ندب الإسلام المسلم إذا سمع المؤذن أن يقول مثل ما يقول، كلما سمع جملة من المؤذن رددها، فيزيد تعمق معاني الأذان في قلبه؛ لأنه قد تدبر معناه مرتين، مرة عند سماعه، ومرة عند قوله.

إن الإسلام أمرنا بسماع الأذان والإنصات إليه، والتوقف عما كنا نتحدث فيه، والانصراف إلى متابعة الأذان وترديده خلف المؤذن دون أن نسبقه أو نسابقه، أو نتخلف عنه؛ لندرك أن مقصود ذلك هو سماع القلب والعقل لا الآذان فحسب، فنعي حقائقه.

إن الطامة الكبرى أن يكون أعداء الإسلام أكثر فهمًا، وتقديرًا لمعاني الأذان ودوره من أبنائه، لقد فهموا مقصوده في بدء مشروعيته فحاربوا دعوته، وفهموا مقصوده اليوم، فمنعت أكثر من دولة الأذان في ربوعها، حتى لا يؤثر على أبنائها.

بعد نهاية الأذان:

ثم بعد أن ينتهي المجيب من ترديد الأذان يأتي بما يدلل على فهمه ووعيه بمقصود الأذان، وفقهه لحقائقه التي يقررها، وإدراكه بأن الأذان دعوة تامة، وأن الله جلَّ في علاه هو رب هذه الدعوة التامة، فإذا انتهى الأذان يسن للسامع أن يقول ما صح عن رسول الله ﷺ ، فيما رواه عنه جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: "من

قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة"(١)؛ ومعنى تمام هذه الدعوة أنها تلخيص لدعوة الإسلام كلها.

ظاهر قوله: "حين يسمع النداء" أن يقول المسلم هذا الذكر عند سماع الأذان لا بعد تمامه، لكن الراجح أنه عند تمام النداء والفراغ منه، يقوي ذلك، ورود الحديث الذي يأمر بأن نقول مثل ما يقول المؤذن، وحَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عِنْدَ مُسْلِمٍ بِلَفْظِ: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا علي...ثم سلوا الله لي الوسيلة"(٢)، فهذا الحديث يبين أن المراد بالحين في قوله: "حين يسمع" الفراغ من الأذان، وأن هذا الدعاء يقال بعد تمامه، والمراد بالنداء الأذان، واللام للعهد، أو يقدر محذوف: حين يسمع نداء المؤذن.

قَوْلُهُ: "رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ" المراد بها ألفاظ الأذانِ، وكون تسميتها دعوة أنها تدعو إلى أداء عبادة لله، والإشارة إليها باللفظ الموضوع للقريب إشارة إلى قرب العهد بسماعها، مما يدلل على الإتيان بها عقيب الأذان بلا فاصل، والإشارة إليها تجعل هذه الدعوة من المحسوسات المتمثلة أمام عين السامع، وفي أذنه، فتزداد تميزًا في عقله، ومعرفة بها، وترسخًا في يقينه، فمعلوم أن ما تقع عليه الحاسة أقوى مما لا تقع عليه الحاسة، وقوله: "التامة" وصفت الدعوة بالتمام وهو الكمال؛ لاشتمالها على كلمة التوحيد، وكلمة التوحيد دعوة تامة محكمة لا يدخلها نقص بشرك أو نسخ أو تغيير أو تبديل، وهي دَعْوَة الْحق، قال ابن حجر: "وَقِيلَ لِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ: تَامَّةٌ؛ لِأَنَّ الشَّرِكَةَ نَقْصٌ، أَوِ التَّامَّةُ الَّتِي لَا يَدْخُلُهَا تَغْيِيرٌ وَلَا تَبْدِيلٌ، بَلْ هِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ، أَوْ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَسْتَحِقُّ صِفَةَ التَّمَامِ وَمَا سواهَا فمعرض للْفَسَاد، وَقَالَ ابن التِّينِ: وُصِفَتْ بِالتَّامَّةِ؛ لِأَنَّ فِيهَا أَتَمَّ الْقَوْلِ

(١) صحيح البخاري، كتاب: الأذان، باب: الدعاء عند النداء، رقم: ٦١٤، ١/ ١٢٦.

(٢) مسلم، كتاب: الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن، برقم ٣٨٤.

وَهُوَ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ، وَقَـالَ الطِّيبِـيُّ: مـن أَولـه إِلَـى قَوْلـه: مُحَمَّـد رَسُـولُ اللهِ هِـيَ الـدَّعْوَةُ التَّامَّةِ"(١).

قوله: "(والصلاة القائمة) قيل المراد بها: الْحَيْعَلَةُ ...وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالصَّلَاةِ الـدُّعَاءُ، وَبِالْقَائِمَـةِ الدَّائِمَـةُ مِـنْ قَـامَ عَلَـى الشَّـيْءِ إِذَا دَاوَمَ عَلَيْـهِ، وَعَلَـى هَـذَا فَقَوْلُـهُ: (وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ) بَيَانٌ لِلدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالصَّلَاةِ الْمَعْهُودَةِ الْمَدْعُوِّ إِلَيْهَا حِينَئِذٍ وَهُوَ أَظْهَرُ"(٢). والقول الأخير أرجح عندي فالمراد بالدعوة الأذان، ووجه وصفها بالتمام اشتمالها على أركان الدين جملة وتفصيلًا كما بينا في تحليل الأذان، والمراد بالصلاة القائمة الصلاة المدعو إليها، ووجه وصفها بالقائمة على سبيل المجاز المرسل باعتبار ما سيكون؛ أي ستقوم.

قَوْلُهُ: "آت محمدًا الْوَسِيلَةَ"، الوسيلة: هِيَ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى الْغير، يُقَالُ: تَوَسَّلْتُ إلى فلان؛ أَيْ تَقَرَّبْتُ، وَتُطْلَقُ عَلَى الْمَنْزِلَةِ الرفيعة، قال ابن منظور: "الوَسِيلَةُ: المَنْزِلة عِنْدَ المَلِك. والوَسِيلة: الدَّرَجة. والوَسِيلة: القُرْبة. ووَسَّلَ فلانٌ إلى اللهِ وَسِيلَةً إذا عَمِل عَمَلًا تقرَّب بِهِ إليه. والوَاسِل: الراغِبُ إلى اللهِ...وتَوَسَّلَ إليه بوَسِيلَةٍ إذا تقرَّب إليه بعَمَل. وتَوَسَّلَ إليه بِكَذَا: تقرَّب إليه بحُرْمَةِ آصِرةٍ تُعْطفه عَلَيْهِ. والوَسِيلَةُ: الوُصْلة والقُرْبى، وَجَمْعُهَا الوَسَائِل... الوَسِيلَةُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلى الغَيْر، وَالْجَمْعُ الوُسُلُ والوَسَائِلُ. والتَّوْسِيلُ والتَّوَسُّلُ وَاحِدٌ. وَفِي حَدِيثِ الأَذان: اللهمَّ آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَة؛ هِيَ فِي الأَصل مَا يُتَوَصَّل بِهِ إِلى الشَّـيْءِ ويُتَقَرَّب بِهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ فِي الْحَدِيثِ القُرْبُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَقِيلَ: هِيَ الشفاعةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ: هِيَ مَنْزِلَةٌ مِنْ مَنازِل الْجَنَّةِ"(٣).

---

(١) فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٩٥.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ٢ ٩٥.

(٣) لسان العرب، مادة: وسل.

وَيؤيد قول من قال بأنها منزلة في الجنة حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عِنْدَ مُسْلِمٍ بِلَفْظِ: "فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ...الْحَدِيثَ"(١)، ويوفق بينها وبين المعنى اللغوي للوسيلة بما قاله ابن حجر: "وَيُمْكِنُ رَدُّهَا إِلَى الْأَوَّلِ بِأَنَّ الْوَاصِلَ إِلَى تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ، فَتَكُونُ كَالْقُرْبَةِ الَّتِي يُتَوَسَّلُ بِهَا"(٢).

قَوْلُهُ: "وَالْفَضِيلَةَ"؛ أَيِ الْمَرْتَبَةَ الزَّائِدَةَ عَلَى سَائِرِ الْخَلَائِقِ، وقال ابن منظور: "الفَضِيلةُ: الدَّرَجةُ الرَّفِيعَةُ فِي الفَضْلِ"(٣)، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مَنْزِلَةً أُخْرَى أَوْ تَفْسِيرًا لِلْوَسِيلَةِ فتكون منزلة في الجنة، أو كما يقول: "إظهار فضيلته على الخلق أجمعين يوم القيامة وبعده، وإشهاد تفضيله عليهم في ذلك الموقف"(٤).

قَوْلُهُ: "(وابعثه مَقَامًا مَحْمُودًا) هو الأمر الثالث المدعو به والمرجو حصوله لرسول الله ﷺ ، ومعنى ابعثه: ابعثه يوم القيامة فاقمه مقامًا محمودًا، أو ضمن معنى اقمه، أو أعطه، أو ابعثه ذا مقام محمود(٥)، والْمَقَامُ: "مَحَلُّ الْقِيَامِ. وَالْمُرَادُ بِهِ الْمَكَانُ الْمَعْدُودُ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ؛ لِأَنَّهُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقُومَ النَّاسُ فِيهِ وَلَا يَجْلِسُوا، وَإِلَّا فَهُوَ الْمَجْلِسُ"(٦)، والمراد بالمقام المحمود على أرجح الأقوال مقامه بالشفاعة للخلائق يوم القيامة، فهو المحمود ﷺ لقيامه بذلك، وقال ابن حجر بالإطلاق في ذلك، ولم يقيده بمقام الشفاعة، فقال: "أَيْ يُحْمَدُ الْقَائِمُ فِيهِ، وَهُوَ مُطْلَقٌ فِي كُلِّ مَا يَجْلِبُ الْحَمْدَ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَرَامَاتِ،"(٧).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: الصلاة، باب: القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يسأل له الوسيلة، رقم: ٣٨٤، ١/ ٢٨٨.

(٢) فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٩٥.

(٣) لسان العرب، مادة: فضل.

(٤) فتح الباري، لابن رجب، ٥/ ٢٧٤.

(٥) ينظر: فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٩٥.

(٦) التحرير والتنوير، ١٥/ ١٨٥.

(٧) فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٩٥.

ونكر (مقامًا) للتفخيم والتعظيم؛ أي مقامًا محمودًا بكل لسان، وقَالَ النَّوَوِيُّ: ثَبَتَتِ الرِّوَايَةُ بِالتَّنْكِيرِ، وَكَأَنَّهُ حِكَايَةٌ لِلَفْظِ الْقُرْآنِ(١).

و (محمودًا) اسم مفعول يقع عليه الحمد، لكنه لم يذكر هنا فاعل الحمد، فلم يقل: مقامًا محمودًا من الخلائق، أو من الملأ الأعلى، بل حذف حتى يجعله عامًّا، فهو محمود من كل من يتأتى منه الحمد من لدن آدم إلى قيام الساعة، وما بعدها من موقف الشفاعة.

ووصف المقام بالمحمود على سبيل المجاز العقلي، قال الطاهر ابن عاشور: "وَوَصْفُ الْمَقَامِ بِالْمَحْمُودِ وَصْفٌ مَجَازِيٌّ. وَالْمَحْمُودُ مَنْ يَقُومُ فِيهِ؛ أَيْ يُحْمَدُ أَثَرُهُ فِيهِ، وَذَلِكَ لِغَنَائِهِ عَنْ أَصْحَابِ ذَلِكَ الْمَقَامِ؛ وَلِذَلِكَ فُسِّرَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ بِالشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى"(٢).

قَوْلُهُ: "الَّذِي وَعَدْتَهُ" جملة الصلة تشير إلى قوله عزَّ وجلَّ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقد يقال: كيف سماه وعدًا مع ظاهر عدم القطع به لقوله: (عسى)؟ والجواب: أن (عسى) من الله قطع، فالرجاء من الله وعد.

وقوله: "حلت له شفاعتي" يشعر أن المراد بالمقام المحمود في الحديث هو الشفاعة، ومعنى حلت: وجبت واستحقت شفاعتي لكل قائل على اختلاف درجته، فيعطى كل نصيبه منها بما يستحق من دخول الجنة، أو رفع الدرجات.

وَفِي الْحَدِيثِ الْحَضُّ عَلَى الدُّعَاءِ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ لِأَنَّهُ حَالُ رَجَاءِ الْإِجَابَةِ(٣)، ثم انظر إلى التناسب بين الجمل سأله بأمرين عظيمين أمرين عظيمين، فسأله الوسيلة والفضيلة بالدعوة التامة، والصلاة القائمة، وبينهما ملمح أن هذين الأمرين العظيمين يوجبان هاتين المنزلتين الكريمتين في الدنيا والآخرة؛ إذ يوجبان وسيلة وهي القرب،

---

(١) ينظر: فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٩٥.

(٢) التحرير والتنوير، ١٥/ ١٨٥.

(٣) ينظر: فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٩٦.

وفضيلة وهي الدرجة الرفيعة للقائم بحقهما، فالحديث يشير إلى أن لهذه الدعوة وللصلاة حقًّا كتبه الله عزَّ وجلَّ على نفسه، لا يخلفه لمن قام بهما من عباده.

إن ما علمنا إياه رسول الله ﷺ لنقوله عقب الأذان هو عنوان فهم المسلم لمعنى الأذان، مما يؤكد على أن الأذان لا تقف مقاصده عند مجرد الإعلام بدخول وقت الصلاة، بل يتجاوز ذلك إلى ما يقوله المسلم عندما يسمعه حتى يترسخ في ضميره، وإلى فقهه له ولمضامينه.

ثم تأتي الإجابة الفعلية بحضور الصلاة لتكون إعلانًا من المسلم بأنه صدق مضمون الأذان، وامتثل لنداء الحق، فيتحقق له موعود الحق بالفلاح.

المبحث الثاني
دقائق الأسرار في صيغة الإقامة

صيغة الإقامة:

جاء نصها في حديث الأذان سالف الذكر، وهي: "وَتَقُولُ إِذَا أَقَمْتَ الصَّلَاةَ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ".

اتحاد الإقامة مع الأذان في جلِّ ألفاظها:

إذا كان الأذان إعلامًا بدخول وقت الصلاة، فإن الإقامة إعلام بالشروع فيها، وسرُّ تضمينها ما ورد فيها من ألفاظ الأذان وجمله هو تذكير المصلي وتنبيهه بهذه المعاني العظيمة حتى يشرع في صلاته مستحضرًا هذه المعاني الجليلة السامية، فيفرغ نفسه وقلبه لها، ويستشعر عظمة من يعبده، وعظم ما يعبده به، وما يترتب عليه من عظيم الثواب، قال القاضي عياض: "ثم كرر ذلك بإقامة الصلاة للإعلام بالشروع فيها، وهو متضمن لتأكيد الإيمان وتكرار ذكره عند الشروع في العبادة بالقلب واللسان، وليدخل المصلي فيها على بينة من أمره وبصيرة من إيمانه، ويستشعر عظيم ما دخل فيه وعظمة حق من يعبده وجزيل ثوابه انتهى"[1].

الإقامة فرادى:

وأفرد جمل الإقامة ولم يثنها كالأذان، فجاءت جمل الأذان من التكبير، والشهادتين، والدعوة إلى الصلاة، والفلاح في الإقامة فرادى لم تثن كما في الأذان؛ لأن هذه المعاني وهي الوحدانية، والرسالة ثبتت وتقررت بالأذان، وصارت معلومة للمتلقين، فالحاجة إليها هو إعلام المتلقي بالقيام إلى ما قد دُعي إليه، وأُعلم بوقته بالأذان، وهو إقامة الصلاة؛ لذا استغني عن إعادتها للتأكيد، ولأن الأذان لأجل إعلام الغائبين فكرر؛ ليكون أبلغ في

---

(١) شرح سنن ابن ماجه، ١/ ٥٢.

إعلامهم، فكما كان أكمل هيئة كان أكمل ذكرًا، والإقامة لأجل إعلام الحاضرين، فلا حاجة إلى تكرارها، فكما كانت أنقص هيئة، فلا يرفع فيها الصوت، ولا يقف المقيم على مكان مرتفع كانت أنقص ذكرًا[١].

سر تثنية التكبير:

وثني التكبير في الإقامة على خلاف بقية جملها لمزيد العناية والاهتمام به، قال البقاعي: "وأكد التكبير بما ذكر في الأذان نوع تأكيد لما تقدم من مزيد الاهتمام"[٢]، ففيه مزيد تنبيه للناس، وصرفهم عن الانشغال بالتوافه، وتعظيم الله في نفوسهم قبل الدخول في الصلاة.

وإذا نظرنا وجدنا أن التكبير في الإقامة إفراد كذلك بالنسبة إلى التكبير في الأذان؛ لأن المؤذن يقول كل تكبيرتين بنفس واحد، فتكون التكبيرتان في الإقامة إفرادًا، والأربعة في الآذان مثنى.

(قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة):

زادت الإقامة عن الأذان قول المؤذن: (قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة)، جملة يستنهض بها الإسلام همم من يفزعهم أن تقوم الصلاة ولا يقومون، أما غيرهم فلا يلتفتون إلى مضمونها، فهذه الجملة هي حقيقة لفظ الإقامة، ومقصدها، لكن جميع ألفاظ الإقامة مشروعة ليقوم الناس للصلاة، لكن صريحها (قد قامت الصلاة) كما أن الأذان كله نداء، لكن صريحه (حي على الصلاة).

وتسمية الإقامة بالإقامة هو من تسمية الكل باسم الجزء؛ وذلك لشرفها؛ إذْ هِيَ الْأَصْلُ فيها، وما سُمِّيَتْ الْإِقَامَةُ إلَّا لِأَجْلِ القيام للصلاة.

---

(١) ينظر: شرح النووي على مسلم، ٤/ ٧٩، وفتح الباري لابن حجر، ٣/ ٨٤.

(٢) الإيذان، ص ٦٠.

سر تثنية الإقامة:

وثنيت الإقامة؛ لأنها المقصد الذي شرعت الإقامة له، قال النووي: "وَإِنَّمَا كَرَّرَ لَفْظَ الْإِقَامَةِ خَاصَّةً؛ لِأَنَّهُ مَقْصُودُ الْإِقَامَةِ"(١). أو لتنبيه الغافل، وللحث على الإسراع إليها، وقال البقاعي في سر تكرارها: "والإقامة لإسراع من عنده بعض عقلة أو توان"(٢).

حقيقة الجملة:

نقيم بناء الجملة من مقصدها، ومقصد الجملة تنبيه الناس للإسراع بالدخول في الصلاة، بإعلامهم أنه قد بدأ الشروع فيها، وعلى هذا المقصد تعددت تأويلات العلماء لحقيقة الجملة، ودارت كلها في نطاق ما يحمل معنى الحث والإلهاب، فمنهم من حمل (قامت) على الاستعارة التبعية لـ (قاربت، وحانت، وآن) واستعير القيام لهذه المعاني لأنه أول أحوال الصلاة؛ أي شرعوا فيها، فهو مجاز عن بدء الشروع فيها، أو على المجاز المرسل بالتعبير بالسبب عن المسبب، أو على حذف مضاف قد قام أهل الصلاة، فحذف المضاف وأسند القيام إلى الصلاة على سبيل المجاز العقلي بإسناد القيام إلى الصلاة، والقيام حقيقة لأهلها، والقرينة معنوية؛ إذ إنه مفهوم أن القيام للناس، أو أن يكون المراد قيام الصلاة نفسها بمعنى تلبس العباد بالقيام بها، أو على الاستعارة المكنية بتشبيه الصلاة بالرجل القائم المتأهب لأداء الصلاة، وحذف المشبه به، وأثبت لها القيام وهو لازم من لوازم المشبه به على سبيل التخييل، وحقيقة قيام الإنسان هو الشروع في أداء الصلاة، وقيام الصلاة هو البدء في أركانها، وهذه الاستعارة تخرج الصلاة في صورة إنسان حي نهض بعزم لأداء الصلاة، وهذا يحمل على سرعة المبادرة للحاق به، وهو مما يتناغم مع مقصد الإقامة.

---

(١) شرح النووي على مسلم، ٤/ ٧٩.

(٢) الإيذان، ص ٦٠.

قال أبو طالب المكي: "قد قام الناس للصلاة، وقد قام المصلّون؛ لأنّ الصلاة لا تقوم، فإذا قاموا عند قوله: (قد قامت الصلاة) كان المؤذن صادقًا في قوله، وإن كان جائزًا على المجاز لقرب الوقت، وظهور سبب القيام"(١).

وقال الكاساني: "أَمَّا قَوْلُهُ: إنَّ الْمُنْبِئَ عَنْ الْقِيَامِ قَوْلُهُ: (قَدْ قَامَتْ الصَّلَاةُ)، فَنَقُولُ: قَوْلُهُ: (قَدْ قَامَتْ الصَّلَاةُ) يُنْبِئُ عَنْ قِيَامِ الصَّلَاةِ لَا عَنْ الْقِيَامِ إلَيْهَا، وَقِيَامُهَا وُجُودُهَا"(٢).

وقال الملا القاري: "الْمَعْنَى: قَارَبَتْ قِيَامَهَا، وَفِي النِّهَايَةِ: قَامَ أَهْلُهَا، أَوْ حَانَ قِيَامُ أَهْلِهَا"(٣).

ويقول العدوي: "قَوْلُهُ: قَدْ قَامَتْ الصَّلَاةُ؛ أَيْ اسْتَقَامَتْ عِبَادَتُهَا، وَآنَ الدُّخُولُ فِيهَا"(٤).

فأبو طالب المكي حمل الجملة على المجاز العقلي للسببية؛ أي قام الناس لأجل الصلاة للسبب الغائي؛ لأن الصلاة لا تقوم، كما قال بإمكان حمل القيام على الاستعارة لقرب الوقت، أو على المجاز المرسل؛ إذ عبر بالسبب عن المسبب، فالصلاة سبب للقيام.

والكاساني يحمل التعبير على الاستعارة التبعية باستعارة القيام للوجود، فقامت الصلاة إنباء عن قيام الصلاة نفسها؛ أي وجودها لا عن القيام إليها؛ لأن القيام إليها يكون عند قول المؤذن: (حي على الصلاة)، أما قوله: (قد قامت الصلاة) فللشروع فيها.

والملا القاري جعل (قامت) استعارة تبعية لقربت، وأتى بقولين آخرين أحدهما يحمل على المجاز العقلي، وهو قام أهلها، والثاني على الجمع بين الاستعارة التبعية باستعارة قامت لحانت، والمجاز العقلي بإسناد القيام لأهلها، والعدوي كذلك حمل التعبير على

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب، ٢/ ٣٥٥.

(٢) بدائع الصنائع، ٢/ ٢٧٧.

(٣) مرقاة المفاتيح ٢/ ٥٤٩.

(٤) حاشية العدوي ١/ ٣٥٧.

الحقيقة فقامت؛ أي استقامت عبادتها، وعلى الاستعارة التبعية باستعارة قامت لآن الدخول فيها.

والأولى، والأوفق للسياق، والأوفى بأداء الغرض وهو استنهاض الناس للصلاة حمل الجملة على المجاز العقلي، والمعنى: قد قام الناس للصلاة؛ لأنه أكثر تحقيقًا لمعنى وقوع قيامها، وهو قد كان إذ قام الناس فعلًا قبل سماع الجملة لا قاربوا القيام، ولأن الاستعارة التبعية لاقتربت وحانت وآن الدخول فيها لا تعطي معنى الحث والإلهاب للإسراع بالقيام إليها وهو مقصود الجملة كما يعطيه المجاز العقلي، وكذلك ما استعيرت له قامت كان في توجيهات العلماء لا بد من حمله على المجاز العقلي، حان أداؤها، وآن الدخول فيها؛ لأنه لا يصح إسناد شيء من هذه الأفعال إلى الفاعل (الصلاة) لاستحالة وقوعه منها.

وكذلك المجاز العقلي فيه مبالغة تتحقق بها مقصد الجملة؛ إذ تلفت المتلقي إلى انتظام جميع أهلها فيها، حتى لكأن الصلاة هي التي قامت دون أن ينقصها ركن من أركانها، ومن أركان قيامها قيام أهلها لها؛ إذ لا تؤدى إلا بهم، فالمعنى: قد قام جميع أهلها، وفي ذلك توبيخ للمتكاسل عنها دون من قاموا إليها.

كما أن إسناد الفعل إلى غايته دليل على وقوعه من فاعله الحقيقي أصالة، والإسناد إلى السبب الغائي فيه مبالغة يقتضيها المقام وهو حث الناس على الإسراع؛ لأنه إذا تحققت الغاية التي لها الفعل من الفاعل الحقيقي فأولى تحقق وقوع الفعل من الفاعل نفسه، فالمجاز العقلي إثبات للحكم بالدليل، والدعوى المشفوعة بالدليل آكد وأقوى من دعوى لا تؤيدها بينة.

وفي تجاوز الفاعل الحقيقي إلى الفاعل المجازي تسليط للضوء على الفاعل المجازي وأنه هو الأولى بلفت المخاطب إليه، وهو أن الصلاة نفسها قامت بجميع أهلها؛ إذ لا تقوم إلا بهم، بغض النظر عمن قام إليها، فمن قام إليها هم أهلها، فلا تفوتنك، ولبيان الغاية التي ينادي إليها، وبيان أهميتها، وتعظيم شأنها، وأنه لولاه ما كان قيام الناس الآن، ولا الدعوة إلى القيام، فليس المقام لبيان من يسعون إليها دونك.

وقد هيأ للمجاز وتجاوب معه في إفادة سرعة الإلهاب والحث التعبير بالماضي، وإدخال قد عليه، وحذف المضاف، وتعريف الصلاة بأل العهدية؛ ليقول: إنها المعهودة المعلومة الحاضر وقتها، ولو فات فاتت، وهذه التهيئة للمجاز، والتناسب بين عناصر السياق جعل المجاز أوقع في النفس، وألطف، وآكد، وأبلغ.

فالمجاز فيه ما فيه من الإيجاز والمبالغة، وإثارة لذهن المتلقي، وبعث له على سرعة اللحاق بها حتى لا تفوته، فكان الإسناد المجازي أبلغ من الحقيقي من كل وجه لمطابقته مقتضى الحال.

والتعبير الحقيقي الذي يدل على أصل المعنى، ومرتبته الأولى هو: (يقوم الناس الآن لأداء الصلاة)، والغرض منه الحث والإلهاب واستنهاض الناس للقيام لأداء الصلاة وتهييجهم وتحفيزهم، ببيان أن الناس يشرعون الآن في بدء إقامتها، فالصلاة ستقام الآن.

ثم تركت هذه المرتبة إلى الأبلغ منها، وهي: (قام الناس لأداء الصلاة) بالعدول عن المضارع إلى الماضي لبيان تحقق الفعل، وهو الشروع في أداء الصلاة، فلا وقت للتراخي عن القيام، أو التكاسل عن القيام لها، قال الملا القاري: "عُبِّرَ بِالْمَاضِي إِعْلَامًا بِأَنَّ فِعْلَهَا الْقَرِيبَ الْوُقُوعِ كَالْمُحَقَّقِ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ وَيُبَادِرَ إِلَيْهِ"(١).

ثم تركت هذه المرتبة إلى الأبلغ منها، وهي: (قام الناس للصلاة) بحذف المضاف وهو الأداء مبادرة إلى بيان أنه لا وقت للتأخر، وهو نظير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ [الجمعة: ٩]؛ أي نادى المؤذن لإقامة الصلاة.

ثم تركت هذه المرتبة إلى الأبلغ منها، وهي: (قامت الصلاة) بإسناد القيام إلى الصلاة على سبيل المجاز العقلي؛ وكأن الناس جميعًا قاموا، فلم يعد إنسان لم يقم، حتى

(١) مرقاة المفاتيح ٢/ ٥٤٩.

أصبحت الصلاة هي القائمة، لا ينقصها شيء، ولا بحاجة إلى آخر، ففيها مزيد إلهاب، ومزيد توبيخ للمتأخر.

ثم تركت هذه المرتبة إلى الأبلغ منها، وهي: (قد قامت الصلاة) بإدخال (قد) على الفعل الماضي مما يفيد التحقيق، قال النووي: "قال أهل العربية: (قد) حرف يوجب به الشيء، تقول: قد كان كذا، فتأتي بـ (قد) توكيدًا لتصديق ذلك الخبر، وهي تقرب الماضي من الحال قالوا: ومنه قوله: قد قامت الصلاة قبل قيامها، والمعنى قد حضرت الصلاة، وجاء وقت إقامتها، وهو الدخول فيها وإتمامها، وتطلق قد لتحقيق الشيء...والصلاة القائمة؛ أي التي ستقوم أي تقام وتفعل بصفاتها"[(١)]، وكلام النووي بعد أن بين أن (قد) في كلام العرب تفيد التحقيق يجعل (قد) هنا للتقريب، وكذلك العيني في قوله: "قوله: قد قامت الصلاة ؛ أي: قد قربت وحانت؛ لأن (قد) فيها للتقريب"[(٢)]، والأولى أنها للتحقيق تجاوبًا مع السياق على نحو ما بينته، فلا يترك ما هو أصل فيها إلى ما هو فرع لغير علة قوية، فـ (قد) مع الفعل، كـ (إن) مع الخبر، قال الطاهر ابن عاشور: "وَ (قَدْ) فِي كَلَامِ الْعَرَبِ لِلتَّحْقِيقِ، أَلَا تَرَى أَهْلَ الْمَعَانِي نَظَّرُوا (هَلْ) فِي الِاسْتِفْهَامِ بِـ (قَدْ) فِي الْخَبَرِ، فَقَالُوا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ: إِنَّ (هَلْ) لِطَلَبِ التَّصْدِيقِ، فَحَرْفُ (قَدْ) يُفِيدُ تَحْقِيقَ الْفِعْلِ، فَهِيَ مَعَ الْفِعْلِ بِمَنْزِلَةِ إِنَّ مَعَ الْأَسْمَاءِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ الْخَلِيلُ: إِنَّهَا جَوَابٌ لِقَوْمٍ يَنْتَظِرُونَ الْخَبَرَ، وَلَوْ أَخْبَرُوهُمْ لَا يَنْتَظِرُونَهُ لَمْ يَقُلْ: قَدْ فَعَلَ كَذَا"[(٣)].

ثم زاد إلى ما سبق تكرار الجملة مرة أخرى زيادة في التأكيد، وزيادة في الإلهاب والتحفيز والاستنهاض.

وعبر القيام في: (قد قامت الصلاة) دون قد حانت أو آنت؛ للفت الانتباه إلى وجوب إدائها تامة، كاملة، في خشوع، وخضوع وخشية، حتى يتحقق معنى إقامتها، فإيثار

---

(١) تحرير ألفاظ التنبيه، ص ٥٣، ٥٤.

(٢) شرح أبي داود، للعيني، ٢/ ٤٢٤.

(٣) التحرير والتنوير، ٢/ ٢٦.

التعبير بالقيام هنا وفي الأمر بإقامتها في القرآن الكريم سره هو إرادة تحقيق ما في لفظ القيام من معاني متعددة، وهي: العزم والجد، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]؛ أي: لما عزم، والمحافظة، والإصلاح، والعناية التامة، كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]؛ أي ملازمًا محافظًا، الوقوف والثبات، ومنه يُقَالُ لِلْمَاشِي: قِفْ لِي؛ أَيْ تحبَّس مكانَك حَتَّى آتِيَكَ، وَكَذَلِكَ قُم لِي بِمَعْنَى قِفْ لِي، وَعَلَيْهِ فَسَّرُوا قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠]؛ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ: قَامُوا هُنَا بِمَعْنَى وقَفُوا وَثَبَتُوا فِي مَكَانِهِمْ غَيْرَ مُتَقَدِّمِينَ وَلَا متأَخرين، وَمِنْهُ التَّوَقُّف فِي الأَمر وَهُوَ الوقُوف عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ مُجاوَزة لَه: قف مكانك[1]، ففي الإخبار عن الصلاة بالقيام إخبار عنها بتحقيق كل هذه المعاني، فيكون المصلي عازمًا على أدائها، محافظًا عليها، مصلحًا لأركانها، مداومًا على فرضيتها، وفي هذا إشارة ولفت إلى عظم هذه العبادة، وإلى كيفية أدائها.

وأل في (الصلاة) في قوله: (قد قامت الصلاة) هي لام العهد؛ أي الصلاة المكتوبة على العبد الحاضرة في هذا الوقت، ستقوم؛ أي تقام وتفعل بصفاتها؛ إذ إن المفترض أن المسلم ليس عليه صلاة فائتة، ولا مطالب بصلاة لم يأت أوانها بعد، إذن فالصلاة هنا هي كل ما فرض على المسلم من صلاة يجب أن يتأهب لها؛ ولذا لم تأت الصلاة مجموعة في القرآن إلا في موضعين هما في سياق الأمر على المحافظة على الصلوات في سورة البقرة، والوعد بالمحافظة عليها في سورة المؤمنون.

وجاءت الجملة خبرية دون (قوموا إلى الصلاة) لبيان أنها أمر واقع يجب المبادرة بالامتثال له، والالتحاق بأهله، فليس هناك مهلة زمنية تستغرق الأمر والبدء في شروع الامتثال له، وإنما هي حقيقة واقعة، وخبر كائن.

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادة: قوم.

وعبر بالفعل الماضي الذي يفيد تحقق الوقوع، وأدخل عليه (قد) زيادة في تأكيد الإخبار بتحقق الوقوع للحث على استنهاض الحاضرين للقيام للصلام، قال الطاهر بن عاشور في قوله تعالى﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]: "وَأَكَّدَ هَذَا الْخَبَرَ بِحَرْفِ (قَدْ) الَّذِي إِذَا دَخَلَ عَلَى الْفِعْلِ الْمَاضِي أَفَادَ التَّحْقِيقَ؛ أَيِ التَّوْكِيدَ، فَحَرْفُ (قَدْ) فِي الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ يُفِيدُ مُفَادَ (إِنَّ وَاللَّامِ) فِي الْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ؛ أَيْ يُفِيدُ تَوْكِيدًا قَوِيًّا"(١).

وكرر الجملة زيادة في توكيدها، فاجتمع للجملة خمسة عناصر للتوكيد، خبريتها، والتعبير بالماضي، وإدخال قد على الماضي، والتكرار، وما بيناه من بنائها على النحو الذي بنيت عليه.

وبنيت الجملة على الإيجاز، إيجاز بالحذف على نحو ما سبق من تحليل الجملة، وإيجاز قصر بما تضمنته ألفاظ الجملة، من التعبير بالماضي وإيحاءاته، وتعريف الصلاة بأل للعهد، وكذا تركيبها وتكاثر المعاني تحتها.

ترديد الإقامة:

تردد الإقامة تذكيرًا بمعانيها، وترسيخًا لها في قلب قائلها، كما تردد جمل الأذان على نحو ما بينته سابقًا، إلا أن الإجابة لقول المؤذن: (قد قامت الصلاة) تكون بالفعل لا بالقول، وفي هذه الإجابة الفعلية تصديق لقول المؤذن فيما أخبر به، قال المولى خسرو: "وَالْقِيَامُ عِنْدَ الْحَيْعَلَةِ الْأُولَى؛ يَعْنِي حِينَ يُقَالُ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّهُ أُمِرَ بِهِ؛ إِذْ مَعْنَاهُ: هَلُمَّ وَأَقْبِلْ، فَيُسْتَحَبُّ الْمُسَارَعَةُ إِلَيْهِ، وَالشُّرُوعُ عِنْدَ (قَامَتْ الصَّلَاةُ)؛ لِأَنَّ الْمُؤَذِّنَ أَمِينٌ، وَقَدْ أَخْبَرَ بِقِيَامِ الصَّلَاةِ، فَيُشْرَعُ عِنْدَهُ صَوْنًا لِكَلَامِهِ عَنْ الْكَذِبِ"(٢).

---

(١) التحرير والتنوير، ١٨/ ٨.

(٢) درر الحكام شرح غرر الأحكام، ١/ ٣٤٥.

بين الأذان والإقامة: (معنى، وتسمية، ومقصداً، ووقتاً، وأداءً):

معنى كلٍّ: الأذان: "الْإِعْلَامُ بِدُخُولِ وَقْتِ الصَّلَاةِ بِأَلْفَاظٍ مَخْصُوصَةٍ عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ"(١). الإقامة: "الْإِعْلَامُ بِالْقِيَامِ إِلَيْهَا بِذِكْرٍ مَخْصُوصٍ"(٢)، فالإقامة كالأذان لها ذكر مخصوص لا زيادة عليه ولا نقصان، ولا خلل في ترتيبه.

تسمية كلٍّ:

سمي الأذان بالأذان، تسمية لهذه الألفاظ بمقصودها، وهو الإعلام بوقت دخول الصلاة.

وسميت الإقامة بالإقامة تسمية للكل بجزء منه؛ وهذا الجزء هو مقصود ألفاظ الإقامة، فسمي هذا الذكر بالإقامة؛ لأنه يقيم إلى الصلاة.

وقيل يطلق عليهما أذان تغليبًا، قال الملا القاري: "بين كل أذانين أي أذان وإقامة فيه تغليب، أو المعنى بين إعلامين صلاة. قال الطيبي: غلب الأذان على الإقامة، وسماها باسمه...ويحتمل أن يكون الاسم حقيقة لكل منهما؛ لأن الأذان في اللغة بمعنى الإعلام، فالأذان إعلام بحضور الوقت، والإقامة إعلام بحضور فعل الصلاة بين كل أذانين صلاة"(٣).

مقصد كلٍّ: الفرق بين الأذان والإقامة: الأذان إعلام بالصلاة للتهيُّؤ لها، والإقامة إعلامٌ للدُّخول فيها والإحرام بها، فمقصدهما مختلف، فلاختلاف مقصدهما اختلفا صفة.

وقت كلٍّ: يكون الأذان بدخول وقت الصلاة، فلا يصح الأذان قبل دخول الوقت؛ لأن مقصوده الإعلام بالوقت، أما الإقامة فإن وقتها هو إرادة الدخول في الصلاة إضافة لدخول الوقت.

---

(١) شرح مختصر خليل، للخراشي، ٣/ ١٠٧.

(٢) كشف القناع عن متن الإقناع، ٢/ ١٢٧.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣/ ١١٦.

"(ولا يصحان)؛ أي: الأذان والإقامة إلا بوقت؛ أي: بعد دخوله لما روى مالك بن الحويرث أن النبي ﷺ قال: (إذا حضرت الصلاة، فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم) متفق عليه، ولأنه شرع للإعلام بدخول الوقت، وهو حث على الصلاة فلم يصح في وقت لا تصح فيه"[1].

كيفية أداء كلٍّ:

أولًا: يسن أداء الأذان بترسل وتمهل؛ أي تأن في التلفظ به مرتلًا، بقطع الكلمات بعضها عن بعض، بسكتة بين كل جملة وجملة؛ لأنه إعلان للبعيد، وإعلام الغائبين، فيحتاج إلى ترسل، فالتثبت فيه أبلغ في الإعلام.

ويسن أداء الإقامة حدرًا، والحدر في الشيء الإسراع؛ أي إدراج بعضها في بعض بلا ترسل؛ لأنها لإعلام الحاضر القريب، فلا حاجة إلى التثبت فيها، وزيادة الوقت.

والنطق بالأذان يكون جزمًا غير معرب، كذا الإقامة، قال إبراهيم النخعي: شيئان مجزومان كانوا لا يعربونهما: الأذان والإقامة جزم، ومعناه: استحباب تقطيع الكلمات بالوقف على كل جملة، ويسن الوقف فيهما على كل جملة[2].

وقيل: إن الترسل والحدر من زينة الأذان والإقامة، فإن أتى بكلٍّ على وجهه كان حسنًا، وإن غُير كلٌّ عن وجهه لم يكن عيبًا يخل بهما، قال السرخسي: "فَإِنْ تَرَسَّلَ فِيهِمَا، أَوْ حَدَرَ فِيهِمَا، أَوْ تَرَسَّلَ فِي الْإِقَامَةِ، وَحَدَرَ فِي الْأَذَانِ أَجْزَأَهُ؛ لِأَنَّهُ أَقَامَ الْكَلَامَ بِصِفَةِ التَّمَامِ، وَحَصَلَ الْمَقْصُودُ، وَهُوَ الْإِعْلَامُ، فَتَرْكُ مَا هُوَ زِينَةٌ فِيهِ لَا يَضُرُّهُ"[3].

ثانيًا: كما اختلفا أداءً من حيث الإرسال والحدر اختلفا من حيث ارتفاع الصوت وانخفاضه؛ لاختلاف مقصودهما كذلك، فالأذان لإعلام الغائبين، فيحتاج إلى رفع

---

(١) مطالب أولي النهى، ١/ ٢٩١.

(٢) ينظر: مطالب أولى النهي، ١/ ٢٩٩، وتتمة أضواء البيان، ١/ ١٨٥، وإعانة الطالبين، ١/ ٢٣٨، شرح منتهى الإرادات، ١/ ٣٢٠.

(٣) المبسوط، ١/ ٣٨٤.

الصوت؛ لذا استحب أن يكون في مكان عالٍ، وبصوت مرتفع عن الإقامة، والإقامة لاستنهاض الحاضرين فلا تحتاج إلى رفع الصوت؛ لذا كانت أخفض صوتًا من الأذان(١).

ثالثًا: اختلفا كذلك من حيث تكرار جمل كلٍّ، فكررت جمل الأذان مثنى مثنى، والإقامة فرادى، إلا في (قد قامت الصلاة)؛ لأن الأذان للإعلام، والتكرار أبلغ في الإعلام، والإقامة لاستنهاض الحاضرين للصلاة؛ فالإفراد بها أعجل لإقامة الصلاة، فما جاء عليه صفة كل هو الأولى(٢).

رابعًا: كرر التكبير أربعًا في بدء الأذان دون ختامه، وتعادل التكبير في بدء الإقامة وختامها؛ ليكون الأذان أكمل صفة وقدرًا، ولأن الإعلام بأوله؛ فلذا زاد عن آخره، قال الماوردي: "وَأَمَّا قِيَاسُهُمْ عَلَى الْأَذَانِ فَالْمَعْنَى فِيهِ أَنَّهُ لَمَّا وُضِعَ لِلْإِعْلَامِ كَانَ أَكْمَلَ قَدْرًا كَمَا كَانَ أَكْمَلَ صِفَةً، وَالْإِقَامَةُ لَمَّا وُضِعَتْ لِلِاسْتِفْتَاحِ كَانَتْ أَقَلَّ قَدْرًا، كَمَا كَانَتْ أَقَلَّ صِفَةً، وَأَمَّا قِيَاسُهُمْ عَلَى الطَّرَفِ الْآخَرِ فَلَا يَصِحُّ، لِأَنَّ الْأَذَانَ لَمَّا كَانَ مَوْضُوعًا لِلْإِعْلَامِ، وَكَانَ الْإِعْلَامُ بِأَوَّلِهِ كَانَ أَوَّلُهُ زَائِدًا عَلَى آخِرِهِ لِحُصُولِ الْإِعْلَامِ بِأَوَّلِهِ، وَالْإِقَامَةُ لَمَّا كَانَتْ مَوْضُوعَةً لِلِاسْتِفْتَاحِ جَازَ أَنْ يَسْتَوِيَ أَوَّلُهَا وَآخِرُهَا"(٣).

مفاضلة: الأذان أفضل من الإقامة؛ لأنه أكثر ألفاظًا، وأبلغ في الإعلام، كذا الأذان يفضل الإقامة لعموم دعوته، فيبلغ ما لا تبلغه الإقامة، كما أنه أكثر ألفاظًا منها.

المقام:

إن المقام هو الذي استدعى هذه المقتضيات، وفرض هذه الفروق على الأذان والإقامة معنى، ومقصدًا، وتسمية، ولفظًا، ووقتًا، وأداء، وبلاغتهما هو مطابقة كلٍّ لما اقتضاه الحال.

---

(١) ينظر: إعانة الطالبين، ١/ ٢٣٣.

(٢) ينظر: المبسوط، ١/ ٣٧٩.

(٣) الحاوي، ٢/ ٥٥٥.

لقد تحقق في الأذان والإقامة أعلى درجات المطابقة، فالأذان لإعلام الغائب بدخول الوقت، فسمي أذانًا، واقتضى ترسلًا، ورفعًا للصوت، وتكثيرًا للفظ، ولو خالف ذلك لما أدى مقصوده من إبلاغ البعيد، والإقامة لاستنهاض الحاضرين للقيام للصلاة، لذا سميت إقامة، وكان لفظها أوجز، وزمن النطق بها أقل؛ إذ لا حاجة إلى الترسل والإطالة، ويكون صوت مؤديها أخفض.

المبحث الثالث

الظواهر البلاغية في صيغتي الأذان والإقامة

إن الأذان والإقامة على وجازة لفظهما، وقلة جملهما شاعت فيهما ظواهر بلاغية تكمن تحتها عديد من الأسرار البلاغية، ومن الظواهر ما لا يلتقي في بيان كالتكرار وهو لون من ألوان الإطناب والإيجاز بصورتيه، كذا ابتدائية الأخبار، وتوكيدها، ومن ظواهره كذلك خبرية بعض جمله وإنشائية جمل أخرى، اسمية جمل وفعلية أخرى، كل ذلك في لفظ ما نبا به مقامه، ولا جفا السياق شيئًا من تراكيبه ومفرداته.

أولًا: ابتدائية الأخبار:

جاءت جمل الأذان ابتدائية خالية من عناصر التوكيد إلا مضمون جملتي الشهادة (أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله)، فالجملة ذاتها ابتدائية، وإنما التوكيد لما تحمله من مضمون.

وابتدائية الجمل من دلائل توكيد مضمون الجمل؛ إذ إنها تشير إلى أن مضمون هذه الجمل راسخ ثابت، لا يماري فيه أحد، أو يشك فيه شاك، أو يرتاب مرتاب.

ولم يخل الأذان والإقامة من توكيد بتكرار الجمل كلها في الأذان، وجملة الإقامة في الإقامة، وتكرار الجمل من صور التوكيد.

ثانياً: تنوع الجمل بين الاسمية والفعلية:

إن محط العناية والاهتمام في الجملة هو الركن الأول فيها، وهذا هو عمدة الفروق بين الجملتين الاسمية والفعلية، فالعناية تنصب في الجملة الاسمية على المبتدأ ببيان إثبات الخبر له، والعناية في الجملة الفعلية تنصب على الفعل، ثم النظر في صيغة الفعل ببيان استمرار حدوثه إن كان مضارعًا، أو بيان تحققه إن كان ماضيًا، أو بيان أنه مأمور به ومطلوب ومرغوب إن كان أمرًا، وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور: "وَلِأَنَّ الْجُمْلَةَ الْفِعْلِيَّةَ تَدُلُّ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِشَأْنِ الْفِعْلِ دُونَ الْفَاعِلِ...وَالْجُمْلَةُ الِاسْمِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِشَأْنِ الْفَاعِلِ...وَهَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الْفُرُوقِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ الْفِعْلِيَّةِ وَالِاسْمِيَّةِ، وَهُوَ مُصَدَّقٌ بِقَاعِدَةِ إِفَادَةِ التَّقْدِيمِ الِاهْتِمَامَ مُطْلَقًا، وَإِنْ أَهْمَلُوا التَّنْبِيهَ عَلَى جَرَيَانِ تِلْكَ الْقَاعِدَة

عِنْد مَا ذَكَرُوا الْفُرُوقَ بَيْنَ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ وَالِاسْمِيَّةِ فِي كُتُبِ الْمَعَانِي"[1].

فصدر الأذان وختم بالجمل الأسمية (الله أكبر) في البدء والختام، و (لا إله إلا الله) في الختام، وجاءت الجمل الفعلية (أشهد) في الشهادتين.

ولكل من الجملتين غايات ومقاصد لا تقوم بها غيرها، فصوغ الأخبار في الجمل الاسمية في التكبير يفيد تقوية مدلول هذا الأخبار وتحقيقها، وثبوت هذه الحكم للمسند إليه وهو المبتدأ، كما يفيد ثبوت هذه الحقيقة العظمى ودوامها، دون تقييد بأحد الأزمنة الثلاثة، ولا مواجهة أحد بها، بل هي حقيقة قديمة باقية، وحكم ثابت لكل زمان ومكان، ولجميع من يكون، ومن كان على اختلافهم عظمًا وقدرًا.

والجملة الفعلية في الشهادتين تفيد تسليط الاهتمام على فعل الشهادة، والتجدد والحدوث لأن الفعل مضارع، فمضمونها مادة يعني تيقن قائل هذا القول به في الزمن الذي ينطق فيه هذه الجملة، ومضمونها صيغة إيذان بتجدد القول من القائل.

وكلا الجملتين لا تغني غناء الأخرى في موطن كانت فيه، فلكلٍّ دلالاتها التي تشيعها في السياق، وإيحاءاتها التي تنشرها على المعاني.

ثالثاً: التعريف:

تنوعت وسائل التعريف في الأذان والإقامة للمسند إليه بين العلمية في: (الله، محمد)، والتعريف بأل في: (قد قامت الصلاة)، وفي غير المسند إليه التعريف بأل في: (الصلاة، والفلاح).

عرف المسند إليه في التكبير (الله أكبر) باسم الجلالة (الله) الاسم العلم على ذاته جلَّ وعلا، ورسول الله ﷺ بالاسم العلم عليه (محمد)؛ وذلك لإحضارهما في ذهن السامع بالاسم المختص بهما؛ لأن المعاني التي أسندت إليهما معانٍ جليلة.

فالتعبير باسم الجلالة والإخبار عنه جلَّ جلاله بأنه أكبر أخبار عن ذاته، لا أكبر لصفة من صفاته، أو أنه دعانا إليه مظهرًا امتنانًا، أو قهرًا.

---

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٢٦٥.

وعرف رسول الله في الشهادة له ﷺ بالرسالة (أشهد أن محمدًا رسول الله) بالاسم العلم (محمد) وهو أشهر أسمائه، وأعرفها؛ رفعًا لذكره في العالمين، وإحضارًا له بعينه في ذهن السامع.

وعرفت (الصلاة) في الأذان والإقامة بأل التي للعهد، فتكاثرت إيحاءاتها، مع وجازة اللفظ، وتطابق المعنى بين المتكلم والمتلقي.

وعرف (الفلاح) بأل الجنسية؛ ليجعل الدعوة إلى الصلاح دعوة إلى جنس الفلاح وحقيقته، فحملت أل من دلائل الإقناع ما يغني عن كثير من العبارات.

رابعًا: تنوع الجمل بين الخبرية والإنشائية:

جاءت كل جمل الأذان خبرية إلا الحيعلتين، والجمل الخبرية في التكبير، والشهادتين، والتهليل، والإقامة، يقصد بها الإخبار، والإعلام بمضمون هذه الجمل، فتبرز المعنى في صورة الواقع المقرر؛ رغبة في الامتثال له، وإلهابًا على التزامه وتحقيقه، واستنهاضًا إلى سرعة تلبيته وإجابته، فالخبر يحكي واقعًا له نسبة خارجية تصدقه.

ولم تكن هذه الجمل إنشائية على نحو: (كبروا الله، اشهدوا أن لا إله إلا الله، قوموا إلى الصلاة)، وإنما كانت خبرية حملًا للمخاطب على تحقيق مطلوبها وتحصيله، وهو تكبير الله، وإجابة دعوته؛ لأن التعبير بالجملة الخبرية (الله أكبر) إن خالف المتلقي مضمونه، فانشغل بالتوافه عن الله كان مكذبًا بمضمون الجملة، فهي أبلغ في أداء المعنى وآكد، وفي طياتها وخز لضمير المسلم، وحمل له على تحقيقها، وتحصيل مضمونها، ولو كانت إنشائية (كبروا الله) لكانت أمرًا لم يمتثل له، وهذا ليس في قوة مخالفة الواقع الكائن.

كما جاءت جملة الإقامة التي هي مقصد الإقامة الأعظم (قد قامت الصلاة) خبرية لتستنهض الحاضرين لسرعة القيام إلى الصلاة.

وجاءت الجمل الإنشائية في (حي على الصلاة، حي على الفلاح)، والغرض منهما الحث، والإثارة، وتنشيط العقل، وتحريك المخاطب، وهزه للمبادرة إلى إنشاء هذا المعنى،

وللدلالة على أن هذه الدعوة أمرٌ مطلوبٌ، ومرغوبٌ فيه، فصيغُ الأمر تدل على اهتمام المتكلم بالمأمور به لأهميته.

هذا وتنوع سياق الأذان بين الخبرية والإنشائية من آليات إقناع المخاطب، وإشراكه وجدانًا وحسًّا بالجمل الخبرية، فجمل التكبير (الله أكبر) خبرية؛ لأنها ليست للحث، وإنما هي حقائق تقريرية يبثها الأذان في نفوس الناس.

وجاءت (حي على الصلاة) إنشائية للحث والإثارة، وحمل الناس على التلبية، وجذب انتباه المتلقي، وتنشيطه عقله، وتحريك همته، ثم بعد الحث والإثارة يعود به الأذان إلى المشاركة الوجدانية والعقلية بالجمل الخبرية.

إن هذا التنوع، وهذه النبرة بما فيها من هدوء، وإثارة، وسرد حكاية، وانفعال وحثٍّ لهي من أسمى وجوه بلاغة نداء الحق، وأبرز خصائص تأثيره.

خامساً: الفصل: بنيت جمل الأذان جميعها على الفصل؛ إذ لم تعطف فيه جملة على أخرى، بل ترك العطف؛ لأنه بني على الترسل والتمهل، والسكوت على كل جملة، وذلك يناسبه ترك العطف، وألحقت به الإقامة، وحملت عليه.

ومن أسرار ترك العطف بين الجمل كذلك بيان أن كلَّ جملة قائمةٌ برأسها، مستقلةٌ بنفسها، مؤديةٌ معنى ما يراد بها، وأنها وحدها تنهض بالغرض من غير أن ينضم إليها أخرى، وكافية في أن تكون نداء يوقظ العقول، وينبه الغافلين.

إن المقام يستدعي تعداد الجمل إبلاغًا في الإقناع، لتكون دعوة بعد دعوة بجملة جديدة تحمل معنى جديدًا يستنهض العزائم، ويحرك الهمم، قال البقاعي: "ولما كان أجل ما يراد بالأذان كما مضى الإعلام بظهور الإسلام على جميع الأديان، وأنه قد أورق عوده، وزكا وجوده، وثبت عموده، وعز أنصاره وجنوده، جاء على سبيل التعديد والتقرير، والتأكيد من غير عاطف، ولا لافت عن هذا المراد، ولا صارف، تنبيهًا على أن

كلَّ جملة منه ركن برأسه، مستقل بذلك بنفسه، معرب عما هو المراد من الإظهار بالتعداد"[١].

نحن أمام نموذجين للفصل في الأذان فصل بين جمل تحمل مفهومًا مغايرًا، وعلتها كما بينا، وفصل بين جملِ كلٍّ وحدة ومعنى نزلت الجمل الثانية من كل مقطع منزلة التوكيد من التي قبلها، والتوكيد والمؤكد كالشيء الواحد، ولا يعطف الشيء على نفسه.

سادساً: الإيجاز:

لقد بدا الإيجاز واضحًا بنوعيه في الأذان، ومن أجل مظاهره، وأغناه بالدلالات، وأشده إيحاء.

أ ـ إيجاز القصر:

فعلى وجازة لفظ الأذان إلا أنه قد جمع أبواب العقيدة كلها؛ فاشتمل على القواعد الكلية العقلية لهذا الدين، وهي: إثبات الواجبات، فأثبت لله الكبرياء، ونفي المستحيلات، فنفى عنه الشركاء، وتجويز الجائزات، فأثبت أنه سبحانه يفعل ما يشاء، فالواجب وجوده سبحانه، والمستحيل وجود شريك له، والجائز إرسال الرسل، وكل ذلك أثبته الأذان[٢].

ولم يقف الأذان عند شموله لعقيدة الإيمان بقواعدها العقلية حتى شمل الأمور السمعية، كما قال القاضي عياض: "واعلم أن الأذان كلمة جامعة لعقيدة الإيمان مشتملة على نوعيه من العقليات والسمعيات، فأوله إثبات الذات، وما يستحقه من الكمال والتنزيه عن أضدادها، وذلك بقوله: (الله أكبر)، وهذه اللفظة مع اختصار لفظها دالة على ما ذكرناه، ثم صرح بإثبات الوحدانية، ونفي ضدها من الشركة المستحيلة في حقه سبحانه وتعالى، وهذه عمدة الإيمان والتوحيد المقدمة على كل وظائف الدين، ثم صرح بإثبات النبوة والشهادة بالرسالة لنبينا ﷺ ، وهي قاعدة عظيمة بعد الشهادة بالوحدانية، وموضعها بعد التوحيد؛ لأنها من باب الأفعال الجائزة الوقوع، وتلك المقدمات

---

(١) الإيذان، ص ٥٩.

(٢) ينظر: السابق، ص ٥٣.

من باب الواجبات، وبعد هذه القواعد كملت العقائد العقليات فيما يجب، ويستحيل، ويجوز في حقه سبحانه وتعالى، ثم دعا إلى ما دعاهم إليه من العبادات، فدعاهم إلى الصلاة، وعقبها بعد إثبات النبوة؛ لأن معرفة وجوبها من جهة النبي ﷺ لا من جهة العقل، ثم دعا إلى الفلاح، وهو الفوز والبقاء في النعيم المقيم، وفيه إشعار بأمور الآخرة من البعث والجزاء، وهي آخر تراجم عقائد الإسلام"[1].

فالأذان على قصره جاء فيه تمجيد وتعظيم، وتشهد وتوحيد، وإيمان برسالة رسول الله ﷺ ، ودعوة إلى الصلاة فيها استنهاض وحث، ودعوة إلى الفلاح فيها ترغيب، دعوة بعد دعوة، وتأكيد بعد تأكيد، وتكرير بعد تكرير، ثم كرر التكبير تعظيمًا، وختم بالتهليل توحيدًا.

ولأن الصلاة عبادة خالصة لله، فيها من دلائل تعظيمه ومحبته ما فيها؛ فلذا كان النداء أكثره تأكيدًا على ما لله من حقوق، فكان له في الأذان تكبيرٌ بدءًا وختامًا، وتوحيدٌ، وتهليلٌ، ولأن الرسول ﷺ كان واسطة في الصلاة بالدعوة إليها، وتعليم أركانها كان ذكره في الأذان بقدر ما له فيها.

وبدا إيجاز القصر في التعبير بـ (حي) التي تتضمن معنيي طلب الإقبال والتعجيل، وفي إيحاءات (أل) العهد في (الصلاة) و (أل) الجنس في الفلاح.

ب ـ إيجاز الحذف:

تعددت صور الحذف في الأذان والإقامة

١ ـ حذف المفضول في (الله أكبر) ليذهب في عموم المفضول عليه كل مذهب من المعاني والذوات والأعراض.

٢ ـ حذف الصفة في: "أشهد أن لا إله إلا الله"؛ أي لا إله بحق، وبلاغة الحذف توبيخ من اتخذ إلهًا بباطل؛ لأن مما لا ينبغي أن يكون، حتى في وهم واهم؛ لذا حذفت

(١) شرح النووي على مسلم، ٤/ ٨٩.

الصفة حتى يكون الإله المعبود لا يستحق ذلك إلا بحق، ويكون هذا من جملة الأمور المقررة عند العقلاء، ومما لا يحتاج إلى أن ننص عليه لعدم خفائه.

٣ ـ حذف المضاف في (حي على الصلاة)؛ أي: حي على إقامة الصلاة، أو حذف جار ومجرور متعلق بالجملة، والمعنى: حي على الصلاة لأدائها؛ أي أَقبلوا عليها وتعالوا لأَدائها.

٤ ـ حذف المضاف في (حي على سبب الفلاح)، أو على تحصيل أسباب الفلاح.

٥ ـ الإيجاز في: (الصلاة خير من النوم)؛ أي: اليقظة للصلاة خير من لذة النوم.

٦ ـ حذف المضاف في (قد قامت الصلاة).

سابعاً: الإطناب:

لعل من دقائق الأذان والإقامة ولطائفهما، ومما يدهشك، ويستولي على ذوقك جمعه بين هذين الأسلوبين (الإيجاز والإطناب)، ومفهوم الأول: كلام ناقص عن قدر المعنى، ومفهوم الثاني: كلام زائد عن قدر المعنى لفائدة، فكيف اتفق مجيئهما في سياق واحد؟! ومن صور الإطناب:

التكرار:

إن التكرار هو أبرز ظواهر الأذان التعبيرية، مع أن من المعلوم أن الحذف باب جليل من أبواب العربية، فكل ما تفهم العبارة دونه، مع وجود دليل يدل عليه فإنه يحذف احترازًا عن العبث، أما أن تكرر الجملة بلفظها ومعناها مرة أخرى، فإن ذلك أيضًا باب جليل من أبواب العربية فرضته بلاغة الكلام؛ إذ احتاج المقام إلى إبراز المعنى، وتفخيمه، وتقريره بالإلحاح عليه في نفوس المتلقين، واستمالة المخاطب وترغيبه في قبول النصح والإرشاد.

تكرار الجملة:

وحدُّ التكرار كما أصله، واستقر عليه الأستاذ الدكتور/ إبراهيم الخولي ينطبق على جمل الأذان؛ إذ يقول في تعريفه: "هو إعادة العبارة بنصها في سياق واحد، لغرض يستدعي إعادتها، وفي مقام يقتضي هذه الإعادة"(١)، فالتكرار عند فضيلته ما أعيد فيه الكلام مرة واحدة أو مرات كما هو دون تغيير أو تبديل، بشرط أن يكون ذلك في مقام واحد، وفي سياق واحد، ولغرض واحد، فإذا اختلف اللفظ فلا تكرار، أو اختلف المقام، أو السياق، أو الغرض فلا تكرار، فاشتراط اتحاد المقام، والسياق، والمساق، والغرض مؤداه أنه لا يكفي أن تتحد ألفاظ العبارة، ونسقها في المواضع التي أعيدت فيها؛ ذلك أن المقام، والسياق، والغرض لها آثارها في المعنى، وقد يقلب المقام، والسياق، والغرض إلى ضده، فيستحيل التكرار الذي غايته الاحتياط للمعنى، وتثبيته في نفس السامع(٢).

وجمل الأذان داخلة تحت هذا الحد بكل فقراته، وشروطه؛ إذ إن عبارات الأذان تعاد بنصها، في سياق واحد، لغرض يستدعي إعادتها، وفي مقام يقتضيها، والمقام هو الدعوة إلى الصلاة، والإعلام بدخول وقتها، والتكرار يؤكد هذا الإعلام، فعند الزركشي أن العبارات التي شرعت للإعلام تكرارها آكد فيما شرعت له(٣)، وغرض تكرارها هو التأكيد على هذه الحقائق حتى يملأ بهذه المعاني الدنيا لتترسخ يقينًا في نفوس أولئك الذين ينشغلون بالصغير الهين التافه الحقير عن تلبية النداء للوقوف بين يدي الله الأكبر الأعز الأعظم، كما أن تكرارها يقوي إيمان المسلم، ويقربه من الله تعالى أكثر، ويجعله يوقن أن غير الله لا شيء، فانشغال الناس هو المقام الذي يقتضي الإعادة.

والنفوس البشرية المستهدفة بالأذان داعية إلى التكرار، ومقام الأذان بدعوته إلى عبادة يحجز بعض الناس عنها انشغالاتهم بأمور الحياة كذلك داع إلى التكرار.

---

(١) التكرار بلاغة، ص ٢١.

(٢) ينظر: التكرار بلاغة، ص ٢٢، ٥٨، ٦٩.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن، ٢/ ١٣٨.

ولم يكن في تكرار عبارة التكبير تزيد، وإنما استدعاها المقام، فكان التكرار مقتضى طابق المقام، فهو هنا في الأذان يكمن سره في أنه المقصود الأهم الأعظم، الذي تنصرف العناية إليه حتى يترسخ في النفوس، يقول ابن الأثير: "إن التكرير إنما يأتي لما أهمَّ من الأمر، بصرف العناية إليه، ليثبت ويتقرر"(١).

بل إن التكرار هنا أصبح فرضًا وحتمًا فرضته طبيعة المقام والسياق والمعنى والغرض، وفرضته كذلك طبيعة ما يحمله الأذان من آليات الإقناع العقلي والنفسي والشعوري للمتلقين، فالتكرار يلح على هذه القضية حتى يرسخها في نفوس المتلقين، ويؤكد صدق هذه الدعوى.

لقد كررت العبارات بألفاظها، وببنائها التركيبي، وبكل ما تحمل من معانٍ ظاهرة، وأسرار خفية، وما يشيعه السياق من إيحاءات لكل جملة بل لكل كلمة وحرف، كل ذلك مع أداء المكرر دورًا، دون أن يكون عبئًا على السياق.

لقد بني الأذان على تكرار كل جمله مرتين، عدا التكبير، فإنه كرر ست مرات، كذا بنيت الإقامة على تكرار التكبير أربع مرات، وتكرار: (قد قامت الصلاة) مرتين.

وذلك لأغراض بلاغية، ونكات بيانية هي:

١ ـ تثبيت هذه المعاني وتقريرها في نفوس المتلقين، وإفهامهم إياه، وترسيخها في ضمائرهم؛ إذ لا يغني عن التكرار شيء في حفظ العلوم، واكتساب المعارف.

٢ ـ بيان قيمة ما كرر؛ إذ لا نكرر إلا ما كان ذا قيمة، فنكرر ما يحمل مضمونًا نريد له الذيوع والانتشار؛ ووسيلة ذيوعه هو تكراره، يقول الأستاذ الدكتور الخولي: "واستقراء مقامات التكرار في الأنماط العالية من الكلام البليغ، يظهر بينها عنصر مشترك يتمثل في أنها مقامات تلامس الشئون الكبرى في حياة الناس، شئون العقائد والمذاهب، بيانًا، ودعوة، وحوارًا، وحجاجًا، وجدلًا"(٢)، ولا شيء يعلو ما يحمله الأذان من مضامين.

---

(١) المثل السائر، ٢/ ١٥١.

(٢) التكرار بلاغة، ص ٨٣، ٨٤.

٣ . الإلحاح على الفكرة التي ظن قائلها أنها لم تتضح للمتلقي، حتى لا يدع عذرًا لمعتذر، ولا حجة لقائل، يقول الأستاذ الدكتور/ إبراهيم الخولي: "والمتكلم حين يستشعر أن مراده لم يستبن لمخاطبه كما يريد هو، أو حين يعتقد أن المخاطب كان غافلًا وقت التلقي، أو واقعًا تحت تأثير عوامل، تجعله غير مهتم بما يلقى إليه، أو تجعله يتظاهر بأنه لا يبالي بما يسمع، أو يتجاهل قصد المتكلم...المتكلم حين يستشعر شيئًا من هذا لا يجد أمامه إلا (التكرار) يبين به عن حقيقة مقصوده، ويقرره تقريرًا لا يترك للمخاطب تعلة، أو تحلة، يتحلل بها من تبعات ما ألقي إليه، أو يتعلل بها، حين تكون استجابته غير مكافئة، لما عليه موقف المتكلم من عناية واهتمام"[١]. تلك غاية بيانية من أجل غايات التكرار، وهي واقعة على التكرار الواقع في جمل الأذان.

٤ . إرادة التأثير في المتلقين، فالتكرار وسيلة حجاجية عالية، وآلية من آليات الإقناع، فيكرر القائل حتى تكون استجابة المتلقي مكافئة لما عليه المؤذن من عناية واهتمام بمضمون ما يقول.

٥ . أفاد التكرار حرص الداعي على تبليغ هذه المعاني في نفوس الناس، والصبر عليهم حتى تتأثر نفوسهم بهذا النداء، واستنهاضهم مرة بعد مرة لإجابة النداء.

إن الأذان بما فيه من التكرار درس عملي يعلمنا الصبر على الدعوة، والتلطف في إبلاغها، والإلحاح على المعاني بلا سأم أو ملل، أو فتور أو انقطاع، واستمالة القلوب حتى تستجيب لنداء الحق.

كما أفاد التكرار العناية والاهتمام بهذه الجمل المكررة، مما يوجب على المتلقي أن يحققها في نفسه، وأن يستقبلها بعقله وقلبه، فيستيقظ لها ضميره، ويتفاعل مع الأذان بكل جوارحه.

---

(١) التكرار بلاغة، ص ٨٣.

إن غاية التكرار في الأذان تحريك دوافع المخاطبين؛ لينتبهوا لنداء الحق، فيسرعوا بتلبيته، ولقد تعددت نكات التكرار زيادة على ما سبق من نكات في الأذان بتغاير الجمل على النحو الآتي:

١ ـ ثني التكبير، ثم ربعه؛ لأن مقصد الأذان الأعظم وهدفه هو دعوة الناس إلى عبادة ربهم، وصرفهم عن الانشغال بالتوافه؛ فلذا نبه، وكرر، وأكد أن الله أكبر من كل شيء، قال الملا القاري: "ولعل وجه تكريره أربعًا إشارة إلى أن هذا الحكم جار في الجهات الأربع، وسار في تطهير شهوات النفس الناشئة عن طبائعها الأربع"(١)، إن تكرار هذه الحقيقة ومواجهة الدنيا بها دون احتفال بأي لون من ألوان التوكيد دلالة على أن قائلها أصبح لا يكترث بالدنيا وما عليها، ومن عليها، وأنه سلب بتكبيره لله الكبرياء من كل أحد، وأثبته لله دون منازعة، ولا خوف؛ وكأنه يقر بقولها أنها أصبحت حقيقة مسلمة لدى الكون كله لا يستخفي بها من أحد.

٢ ـ كرر الشهادة بالوحدانية؛ لتدبر هذه الحقيقة، وإظهار الاعتقاد فيها، فهي مدخل الإسلام مع ضميمتها من الشهادة بالرسالة.

٣ ـ كرر الشهادة بالرسالة تأكيدًا لمضمونها، ورفعًا لذكره ﷺ ، وتنبيهًا إلى أن دعوته للصلاة هي من مقتضيات رسالته.

٤ ـ كرر الدعوة إلى الصلاة (حي على الصلاة) لمزيد استنهاض لها، وحثٍّ على القيام إليها، ومسارعة إلى التلبية.

٥ ـ كرر الدعوة إلى الفلاح (حي على الفلاح) لمزيد تأكيد لهذه الحقيقة، وترسيخ لها في أفئدة المسلمين بأن الفلاح كله في الصلاة.

٦ ـ كرر التثويب (الصلاة خير من النوم) لإيقاظ النائم، ولمزيد إقناعه بهذه القضية التي قد يشكك فيها ما يجده النائم من لذة النوم وراحته.

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٢/ ٥٤٨.

٧ ـ أعاد التكبير في الختام، وكرره لتأصيل هذه القضية وترسيخها، ولبيان أنها أم الحقائق في الأذان.

٨ ـ كرر الإقامة (قد قامت الصلاة) لاستنهاض الحاضرين للمسارعة بالقيام إلى الصلاة، والنشاط والخفة في النهوض.

ثامناً: التناسب:

إن التناسب هو وسيلة الربط الدلالي بين عناصر النص، وشارة إبداع القائل، وآية اقتداره على صياغة معانيه، ودلائل حسن النص وتماسكه، وعلامة مطابقته لمقتضى الحال، يقول الإمام الزركشي: "وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُنَاسَبَةَ عِلْمٌ شَرِيفٌ تُحْزَرُ بِهِ الْعُقُولُ، وَيُعْرَفُ بِهِ قَدْرُ الْقَائِلِ فِيمَا يَقُولُ"(١)، فنص الزركشي يشير إلى أن التناسب هو معيار التفاضل، وأن أقدار النصوص، وأقدار المتكلمين تظهر بتناسب جزئيات النص.

والتناسب يكون بين اللفظ والمعنى، بين مفردات النص، وتراكيبه، ومعانيه، بين سياق النظم، والمقام، والغرض، والمتلقي، بين المعنى الكلي للنص، وإدراك العلاقات بين الجمل والفقرات فيه، يقول الإمام عبد القاهر: "واعلمْ أنَّ ممَّا هو أَصلٌ في أنَ يدِقَّ النظرُ، ويَغْمُضَ المَسْلكُ، في توخِّي المعاني التي عرفتَ: أنْ تتَّحِدَ أجزاءُ الكلامِ، ويَدخلَ بعضُها في بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضَعَها في النفس وضعًا واحداً، وأن يكونَ حالُكَ فيها حالَ الباني يَضعُ بيمينه ههنا في حالِ ما يَضَعُ بيَسارِه هناك"(٢)، ومنه إدراك تناسب الأفكار الجزئية في النص مع المعنى الرئيس، والوقوف على توظيفها بما يخدم المعنى الكلي، ولا يخرج عنه، كذلك علاقة الثاني منها بالأول، وترتب كل على كل، وتقديم ما قدم، وتأخير ما أخر.

لقد بدا التناسب بين جمل الأذان ومقصوده، فمقصوده الدعوة إلى أكبر العبادات وأعظمها؛ لذا نودي لها بأعظم شعار، وبألفاظ تناسب أكبر عبادة لأكبر معبود، حتى

---

(١) البرهان في علوم القرآن، ١/ ٣٥.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٩٣.

يتنبه بهذا الذكر جميع المتلقين، كما بدا التناسب بين جمل الأذان والدعوة إلى الصلاة واضحًا جليًّا على النحو الآتي:

١ . علاقة التكبير بمقصود الأذان أن التكبير من دلائل تعظيم الله، وإعلان استعلائه على كل شيء، فمن دلائل تكبيره وتعظيمه عدم الانشغال عن دعوته أو التباطؤ عن تلبية ندائه، والصلاة أكبر طاعة الله؛ فلذا حسن استفتاح النداء إليها بـ (الله أكبر) تعظيمًا لله.

٢ . علاقة الشهادة بمقصود الأذان أن الاستجابة لما يدعو إليه الأذان من دلائل التوحيد لله، فلا ألوهية إلا لمعبود.

٣ . علاقة الشهادة بالرسالة بالدعوة إلى الصلاة أنها دعوة جاءتنا عن طريق رسالته، فالاستجابة لها علامة على الإيمان برسالته، كما أننا نقيمها على الوجه الذي علمنا إياه رسول الله ﷺ ، فكانت الشهادتان وهما أصل الدين دعوة للصلاة؛ تنبيهًا على عظم هذه العبادة.

٤ . علاقة (حي على الصلاة) بمقصود الأذان أنها صريح الدعوة إلى الصلاة والحث على الإسراع إليها، وبعد التعظيم، والتوحيد، والإيمان برسالة الرسول تكون الدعوة إلى الصلاة.

٥ . علاقة (حي على الفلاح) بمقصود الأذان أن الصلاة مقدمة للفلاح، بل هي عين الفلاح، فلا فلاح إلا بإقامتها.

٦ . ثم بعد إقامتها يمتلئ القلب بتعظيم الله، ويتشبع بدلائل التوحيد، فلا يأتي أشهد في النهاية، وإنما إقرار بها.

ترتيب الأذان:

إن الأذان شعيرة لا تقال إلا على وفق ما جاءت عليه، قال منصور بن يونس البهوتي: "وَلَا يَصِحُّ الْأَذَانُ إلَّا مُرَتَّبًا؛ لِأَنَّهُ ذِكْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ، فَلَمْ يَجُزْ الْإِخْلَالُ بِنَظْمِهِ. كَأَرْكَانِ

الصَّلَاةِ، مُتَوَالِيًا عُرْفًا لِيَحْصُلَ الْإِعْلَامُ"[1].

إن ترتيب الألفاظ في الأذان هي على وفق ترتب المعاني، أول منها يسلم لثانٍ، وثانٍ ترتب على أول، فهي إن لم يكن بينها وصلٌ لفظيٌّ، فإن بينها رابطًا معنويًّا، بحيث لا يجوز تقديم متأخر منها على متقدم.

من صور التناسب في الأذان ما بدا في ترتيب جمله، بدءًا وختامًا، وبناء ثانٍ منها على أولٍ، وتقدم أولٍ على ثانٍ.

كما كانت جمل الأذان مختارة بعناية، ومضامينها مقصودة بعناية، كذلك فترتيب جمله له أغراض ومقاصد؛ حيث إنك لو أردت تقديمًا أو تأخيرًا بين جمله لاختل المعنى الذي يقصده الأذان؛ إذ لا يقتصر معنى الأذان على مجرد الإعلام بدخول وقت الصلاة.

وعلاقة هذه الجمل ببعضها أن الأذان شعيرة من أعظم شعائر الإسلام؛ وكلام جامع لمسائل العقيدة، من الثناء على الله، وإعلان توحيده، والإقرار برسالة نبيه ﷺ ، فجاء ترتيبه على نحو ما نعلم، يبدأ بالتكبير إجلالًا لله، وتعظيمًا لذاته، وإثباتًا للذات الإلهية، وما تستحقه من الكمال، وتنزيهًا له سبحانه عن أضداد الكمال، ثم شهادة لله بالوحدانية، ونفي لما يستحيل في حقه تعالى من وجود شريك له، وهذه الشهادة ركن الإيمان الأعظم، ثم بعد شهادة التوحيد شهادة لنبيه ﷺ بالرسالة إثباتًا لرسالته، والشهادتان ركنا الإيمان ودعامته، فأثبت بالجمل الثلاث ما يجب في حق الله (الله أكبر)، وما يستحيل في حقه وهو وجود شريك له (أشهد أن لا إله إلا الله)، وما يجوز في حقه من إرسال الرسل (أشهد أن محمدًا رسول الله)، ثم بعد إثبات النبوة دعا إلى الصلاة، ولم يدع للصلاة إلا بعد الشهادة لرسول الله بالرسالة حتى يقول: إنه ما دعا إلى الصلاة إلا بمقتضى رسالته، وأنها لم تعرف إلا من جهته ﷺ ، وهذا الترتيب وفق ترتيب أركان الإسلام، ثم ترغيبًا في الدعوة للصلاة أعقبها بالدعوة إلى الفلاح، بل جعله عينها، ثم

(١) شرح منتهى الإرادات، ١/ ٣٢٥.

عاد إلى التكبير لإجلال الله وتعظيمه، وللإشارة إلى أن الله أكبر من كل شيء حتى من طاعة الطائعين، وعبادة العابدين، وأنه لن يقوم بحقه أحد، أو يقدره حق قدره.

ثم ختم الأذان بكلمة الإخلاص، ليختم لله بشهادة التوحيد، وباسمه تعالى كما بدأ به، وأتى به دون توكيد ولا تكرير إشارة إلى تمام الجلال والعظمة، والعلو والكمال، قال ابن حجر: "قال القرطبي وغيره: الأذان على قلة ألفاظه مشتمل على مسائل العقيدة؛ لأنه بدأ بالأكبرية، وهي تتضمن وجود الله وكماله، ثم ثنى بالتوحيد ونفي الشريك، ثم بإثبات الرسالة لمحمد ﷺ ، ثم دعا إلى الطاعة المخصوصة عقب الشهادة بالرسالة؛ لأنها لا تعرف إلا من جهة الرسول، ثم دعا إلى الفلاح وهو البقاء الدائم، وفيه الإشارة إلى المعاد، ثم أعاد ما أعاد توكيدًا"(١).

ثم كرر كل هذه المعاني بإقامة الصلاة لتأكيدها، قال الإمام النووي نقلًا عن القاضي عياض: "ثم كرر ذلك بإقامة الصلاة؛ للإعلام بالشروع فيها وهو متضمن لتأكيد الإيمان، وتكرار ذكره عند الشروع في العبادة بالقلب واللسان، وليدخل المصلي فيها على بينة من أمره، وبصيرة من إيمانه، ويستشعر عظيم ما دخل فيه، وعظمة حق من يعبده، وجزيل ثوابه"(٢).

تاسعاً: التماسك:

تحققت في الأذان كل مظاهر التماسك من الانسجام؛ والاتساق، الانسجام: التوافق بين الأذان شكلًا ودلالة؛ من حيث تناغم الأذان وانسجامه مع القائل، والمتلقي، والمقام، والغرض، والمعنى وما يحمله من أفكار، وهي مظاهر تماسك النص دلاليًا؛ أي تفاعل هذه العناصر، وهذه الأمور هي من عناصر الحال الذي يقتضي ما يقتضيه من خصوصيات لمطابقته، وهي ما تجيب على كل أسئلة النص، وتكشف عن أسراره.

---

(١) فتح الباري، لابن حجر، ٢/ ٧٧.

(٢) شرح النووي على مسلم، ٤/ ٨٩.

أولًا: قائل النص: تحقق الانسجام بين الأذان ومنشئه، فإن كان لكل نص قائل، والنص يكون صاحبه شكلًا ومعنى، عقيدة وخلقًا، فقائل الأذان هو الإسلام بتعاليمه وشرائعه؛ لذا كان الأذان دعوة تامة تشتمل على كل ما يشتمل عليه الإسلام من مظاهر، فبدا التماسك بين الأذان والإسلام، فالأذان هو الإسلام مضمونًا ودعوة، وترجمة صادقة له؛ حيث لا تجده ناقصًا عن دعوة الإسلام، مما يجعله ابن الإسلام نسبًا وأصلًا؛ لذا كان على هذا النحو، ولم يكن بوقًا، ولا ناقوسًا، كما قال الشنقيطي بقوله: "وَلِتَعْلَمَ مِنْ خُصُوصِيَّةِ الْأَذَانِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَغَيْرِهَا بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ بِصَلْصَلَةِ نَاقُوسٍ أَجْوَفَ، وَلَا أَصْوَاتِ بُوقٍ أَهْوَجَ، وَلَا دَقَّاتِ طَبْلٍ أَرْعَنَ، كَمَا هُوَ الْحَالُ عِنْدَ الْآخَرِينَ"[1]، وإنما كان دعوة بالحكمة، لها دلائلها وبراهينها، تدعو إلى الاقتناع الفكري، لا ترى فيها إكراهًا، ولا فظاظة في الدعوة، وإنما لين وحجاج، فبدا بذلك منسجمًا مع الإسلام في كل تعاليمه، يقول الشيخ شاكر: "ففي نظم كل كلام، وفي ألفاظه، ولا بد أثر ظاهر، أو وسم خفي من نفس قائله، وما تنطوي عليه من دفين العواطف والنوازع والأهواء"[2].

ثانياً: المتلقي:

إن المتلقي هم المسلمون على عمومهم، واختلاف درجات إيمانهم، وتفاوت أحوالهم في الاستجابة لنداء الحق، لقد تحقق الانسجام بين النص والمتلقي؛ إذ إن الأذان دعوة إلى الصلاة، فينبغي أن يكون في هذه الدعوة ما يحمل المتلقي على الإجابة، وما يناسب أحوال الناس جميعًا بصرفهم عما يشغلهم عن الله، إن النداء على الناس في أعمالهم وأحوالهم، وأهدافهم، وتطلعاتهم ينبغي أن يشتمل على ما يحفز الهمم؛ لذا استفتح النداء بما يهز القلوب، ويجلو الغفلة عنها، ويجذب النفوس، ويطهرها، ويزكيها (الله أكبر)، وجاء في الأذان ترغيبًا (حي على الفلاح)، وهل هناك فلاح أعلى من طاعة الله وعبادته، وزاد في صلاة الفجر (الصلاة خير من النوم) تجاوبًا مع حال المتلقي، وذلك ما بينه

(١) أضواء البيان، ٨/ ١٤٨، ١٤٩.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص ١٥.

الشنقيطي بقوله: "بَلْ هُوَ كَلِمَاتٌ وَنِدَاءٌ يُوقِظُ الْقُلُوبَ مِنْ سُبَاتِهَا، وَتُفِيقُ النُّفُوسُ مِنْ غَفْلَتِهَا، وَتَكُفُّ الْأَذْهَانُ عَنْ تَشَاغُلِهَا، وَتُهَيِّئُ الْمُسْلِمَ إِلَى هَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْعُظْمَى، ثَانِيَةِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَعَمُودِهِ"(١).

ثالثاً: المقام:

إن المقام أو الحال هو ما يفرض على النص أدواته ووسائله، وتجاوب الأدوات والوسائل مع المقام هو البلاغة عينُها وحدُّها، والمقام هنا هو الدعوة إلى أعظم شعائر الإسلام، وهي الصلاة؛ لذا كانت الدعوة إليها، والإعلام بها بأعظم شعائرها، وهو الأذان.

هذا المقام بما فيه من داعٍ، ومدعوٍ غافلٍ، مشغول، لاهٍ، وزمانٍ، وحالٍ مختلفٍ للناس هو ما استدعى كل جمل الأذان، وترتيبها على هذا النحو، وتكرارها حتى تترسخ في نفوس المتلقين.

رابعاً: مناسبة النص:

مناسبة النص هي الحدث الذي أنتج النص، وهي هنا مقصود الأذان، وهو الإعلام بدخول وقت الصلاة، ودعوة الناس إليها، لكن الأذان لم يكن (دخل وقت الصلاة، أو تعالوا فصلوا)، وإنما كان ألفاظًا جعلها الشرع دليلًا وعلامة على دخول الوقت، ودعوة إلى إقامة الصلاة بأبلغ لفظ وأوجزه.

إن مناسبة النص وهي الدعوة إلى الصلاة هي التي أنتجت تكبير الله حتى يعظم في نفس المتلقي، وتعظم عنده دعوته أكثر مما هو فيه، وهي التي أنتجت شهادة التوحيد (أشهد أن لا إله إلا الله) التي تقتضي عبادته، وأنتجت (أشهد أن محمدًا رسول الله) التي تعني عبادة الله على وفق ما بيّن رسول الله ﷺ ، وأنتجت (حي على الصلاة)، وأنتجت ترغيبًا فيها (حي على الفلاح).

---

(١) أضواء البيان، ٨/ ١٤٨، ١٤٩.

خامساً: الغرض:

هو الغاية والهدف من الفعل، والغرض هنا إعلام الناس بدخول وقت الصلاة؛ للقيام بأدائها، وعلامة التماسك أن يتحقق غرض النص بأن يكون فيه آليات ووسائل تحقق الغرض، ومن ذلك في الأذان: وقته، وكيفية أدائه في مكان عالٍ، وبصوت مرتفع ندي، وجمله التي تحث الناس على الإجابة.

وأن يتلاءم النص مع الغرض، فمن دلائل التماسك أن يسمو البيان جلالًا واقتدارًا ليتلاءم مع جلال الغرض واقتداره، فالأذان دعوة إلى أم العبادات، ركن الإسلام الثاني، فلا يقوم إسلام المرء إلا بها، اتصال بالله، كفارة الذنوب ما اجتنبت الكبائر، طهارة حسية ومعنوية، كما قال النبي ﷺ: "عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول: ذلك يبقي من درنه. قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله به الخطايا"[1]، فلجلالها كان النداء إليها جليلًا.

وقد بدا التماسك بين إجابة الأذان والغرض، فالغرض من الإجابة هو تذكير المؤذن بمعاني الأذان حتى تستقر في ضميره لا ليعلم به غيره كالأذان؛ فلذا فإنه لا يرفع به صوته، ويستبدل الحيعله؛ لأنها نداء للإقبال على المنادي، وهذه للمؤذن لا للمجيب، فلا أجر للمجيب بقولها؛ لذا فإنه يستبدلها بالحوقلة، بذكر يثاب عليه، ويطلب به عون الله على ما دُعي إليه؛ إذ إنه دُعي إلى أمر عظيم لا يستطيع أن ينهض به إلا بالله.

ومن مظاهر الانسجام الداخلي في الأذان:

١ ـ وحدة الموضوع؛ إذ لم يدخل في الأذان ما ليس منه، أو أنه دعا إلى شعيرة أخرى إلى جانب الدعوة إلى الصلاة، وإنما كان إعلامًا بدخول وقت الصلاة والقيام إليها.

٢ ـ السياق: هو النسق الذي يكون فيه النص من ألفاظ، وتراكيب، هو تعانق الألفاظ والتراكيب لتؤدي معًا معنى كاملًا، والأذان قد انتظم في سياق منسجم، فما نبت فيه كلمة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة، رقم الحديث: ٥٢٨، ١/ ١٢٢.

عن موضعها، ولا استكرهتها جاراتها، ولا كانت ملفقة بين عباراته، ولا أكد حيث يستدعي السياق تركه، أو ترك التوكيد حيث يستدعيه السياق، فحذف ما استغنى السياق عن ذكره، وكرر ما تطلب السياق تكراره.

٣ ـ القصد هو: الغاية والهدف من تراكيب النص، وهذه واحدة من دلائل تماسك الأذان؛ إذ قامت كل جملة بمقصودها فيه دون نبو، فتنوعت جمله حسب مقاصدها إلى خبرية وإنشائية، واسمية وفعلية، كل جملة لها مقصدها الذي لا يفي به غيرها على نحو ما بينته، فبجانب انتظام الأذان في سياق واحد، انتظمت جمله، واستقلت بمقاصدها، ووفت بها.

٤ ـ مطلع النص: كثف الأذان في مطلعه آليات الحجاج والإقناع، والحمل على إفراغ النفس لتلبية نداء الحق بالإخبار بأن الله أكبر من كل ما يشغل الإنسان، ويلهيه عن طاعته، فجلى المطلع مقصد الأذان، يقول الخطيب القزويني: "والمقدمة للكلام ـ كما لا يخفى على من له قدم صدق في نهج البلاغة ـ نازلة منزلة الأساس للبناء، فكما أن البناء الحاذق لا يرمي الأساس إلا بقدر ما يقدِّر من البناء عليه، كذلك البليغ يصنع بمبدأ كلامه، فمتى رأيته قد اختصر المبدأ، فقد آذنك باختصار ما يورد"(١).

٥ ـ حسن الانتهاء: كما كان الأذان حسن الابتداء كان حسن الانتهاء، بأن ختم بما يلخص هذه الدعوة، وتكمن أهميتها بأن آخر الكلام هو ما يبقى عالقًا بذهن المتلقي، فجعلها كلمة التوحيد، ورأس الأمر، وجماعه، وقد روعي فيه تخير الألفاظ، وحسن النظم، والاتساق مع المعنى العام.

مظاهر الاتساق:

دور الكلمة: (أكبر ـ أشهد ـ حي ـ الفلاح) في صيغها وموادها من التعبير بمادة الكبر دون العظم، وبأفعل (أكبر) دون فعيل (كبير)، والتعبير بالفلاح وهو جماع الخير

(١) الإيضاح، ١/ ١٨١.

دون النجاح؛ لتؤدي هذه الكلمات بصيغها وموادها ما لا يمكن أن يؤدى بغيرها كما بينا في التحليل، ولو كان لنبا به السياق.

التكرار: أوحى للمتلقي أن الفكرة التي يتحدث عنها المتكلم هي المكرر ذاته، وأنه قضية كبرى يجب أن يتنبه لها المتلقي، ومن دلائل قيام التكرار بدور في تحقيق التماسك أن المكرر هو عين ما سبق لفظًا ومعنى، وغرضًا.

رد الأعجاز على الصدور: الربط بين آخر الكلام وأوله، فجعل الأذان كله بدءًا وختامًا معقودًا على بيان حقيقة واحدة هي أن: (الله أكبر)، وكأنه سوار يحيط بالمعصم، فالله أكبر في مطلع الأذان ونهايته حصر مقصد الأذان في وجوب تعظيم الله.

عاشراً: مظاهر البلاغة الحجاجية الإقناعية:

لم يكن الأذان دعوة مجردة للإعلام بدخول وقت الصلاة، أو شعيرة تخاطب العقل فقط، أو الوجدان فقط، بل كان دعوة تحمل كل آليات الإقناع والإمتاع، إقناع العقل، وإمتاع الوجدان، دون إكراه، دعوة عامة لعموم المسلمين، فيها تعظيم للداعي، وتكريم وتوقير للمدعوين، دعوة تحفز الهمم، وتستنهض العزائم، وتحرك المؤمن، وتهزه هزًّا لإجابة نداء الحق، دعوة إلى عمود الإسلام وفسطاطه، إلى الحق ونوره وفلاحه، والعمل بما يقتضي ذلك.

لقد خاطب الناس جميعًا في منازلهم، وأعمالهم، ومتاجرهم، ومنتدياتهم، ونواديهم، ألهب حماسة اليقظ، ونبه الغافل، وعاتب اللاهي، ورغب المشغول للفته إلى ما ينبغي الاشتغال به لا الاشتغال عنه.

من أجل ذلك كانت بداية صيحة الأذان، وأول لفظ يخاطب العقول والوجدانات، ويشنف الآذان، وينتزع المسلم من كل ما هو فيه (الله أكبر) فاترك ما سواه، إنها صيحة توقظ الفكرة، وتردنا إلى الفطرة.

بدأ محفزًا منبهًا ليترك الإنسان كل ما يشغله، وليعلم أنه تافه حقير، فقال: (الله أكبر)، إنها صيحة لوم وحثٌّ على الكفِّ عن الانشغال بغير الله من أعراض الدنيا مهما عظم شأنها، فالله أعظم وأجلُّ، صيحة ترغيب في ما يدعو إليه، وتزهيد فيما أنت فيه أيًّا

كان، وأمر بالإقبال على الأكبر والوقوف بين يديه؛ لذا لفتنا بالتعبير باسم الجلالة (الله) الدال على ذاته الشريفة بما لها من الكمال والجلال، فلا أكبر منه حتى ينشغل به المرء، وزيادة في إيضاح الأمر وتقريره قال (أكبر) وحذف متعلقه، ليكون على هذا النحو من العموم، فيخاطب البشرية جمعاء على اختلاف ما هم فيه بأن الله أكبر مما يقع في وهم كل واحد منا، وفي هذ ما فيه من حثٍّ وزجر، واستحضار لعظمة الله وكبريائه، وزيادة في تنبيه الغافل، والإعذار إلى الساهي واللاهي كرر التكبير أربعًا، وليزيد ترسيخه يقينًا في ضمير العبد، ويزيل من نفسه كل تعلق بغيره.

وبعد تنبيه المتلقي ولفته بالتكبير أربعًا أقبل على المتلقي بعد إقباله، وإعراضه عن بعض أعماله بما هو أعلى وهو شهادة التوحيد، قائلًا: (أشهد أن لا إله إلا الله)، شهادة يشهد بها العبد أنه لا مألوه تألهه القلوب وتتعلق به إلا الله، تذكيرًا له بالإله المتفرد بالوحدانية، المستحق للعبودية، ونفي الألوهية عن كل ما سواه، لينصرف العبد عن كل محبوب، ويجعل غايته الله، ففي الشهادة حجة قطعية بأن من حق الله علينا طاعته وعبادته؛ إذ لا معبود بحق سواه، وفيها حمل للمتلقي على مزاولة النهوض عما يشغله، وترهيب له وتخويف من التساهل في ذلك؛ إذ كيف ينشغل الإنسان عن المعبود بحق، ثم أكدها بتكرارها زيادة في الإقناع والتأثير.

ثم زيادة في الإقناع والتأثير أتبع شهادة التوحيد بالشهادة لنبي الله ﷺ بالرسالة؛ إعلامًا بأن الصلاة التي يدعو إليها هي من رسالات السماء، وبلاغات الوحي، وأنها اتصال السماء بالأرض، وإعلان خضوع الأرض لرب السماء، فالتلبية لها تلبية لنداء الحق، وعمل بما توجبه رسالة السماء، ففي الشهادة بالرسالة لرسول الله ﷺ حضٌّ على اتباعه، بتلبية النداء، وإلزام بالاستجابة له.

وبعد هذه المقدمات الجليلة الماتعة المقنعة التي أعانت المتلقي على أن يفرغ قلبه مما سوى الله بعلمه أن الله هو الأكبر، المتفرد بالألوهية، ومهد لهذه الدعوة ببيان أنها جاءت بمقتضى رسالة سماوية، بادر إلى المقصود في أوضح لفظ وأوجزه، وأكرمه وأجله، لا إكراه فيه أو إعنات، ولا إذلال فيه أو إهانة، بل فيه ترفيع وتكريم، فاختار له

ما كان العرب يدعون به إلى موائدهم لإكرام من يجيبهم، فقال: (حي على الصلاة) نداء من إله حق، على لسان نبي عظيم، لعبادة جليلة هي أعظم شعائر الإسلام، فهل لمؤمن عاقل واعٍ أن يتهاون، أو يتغافل عن إجابة هذا النداء، أو يتراخى؟! ثم كرر الدعوة على مسامع المتلقين مرة أخرى، وتكرار الدعوة دلالة توكيدها، وزيادة حرص الداعي على تلبية المدعو، فليست دعوة راغب عنك، بل دعوة راغب فيك، وهذا معلوم في دعوات الناس.

ثم لم يقف الأمر بوسائل الإقناع عند هذا الحد، بل زاد الدعوة بما حسنه ظاهر غير خافٍ؛ ترغيبًا تلطفًا، وتحببًا، فدعاهم إلى الصلاة بدعوتهم إلى الفلاح؛ أي إلى الفوز بجميع المطالب، والحصول على جميع الرغائب، وتحقيق المأمول، فكأنه قال: إن رغبتم بعد كل ما تقدم عن إجابة هذا النداء لظن منكم أن ما أنتم فيه من أعمال، أو بيع وشراء، أو زوجة أو ولد، أو منصب أو جاه يحقق لكم فوزًا أو نجاحًا، فهو كذلك لكنه ليس في كل آن، الآن هلموا إلى عين الفلاح، بل الفلاح مجسدٌ مجموع في الصلاة، فالفلاح في الصلاة في وقتها، لا فيما يشغل المرء عنها.

إن الدعوة إلى الصلاة والفلاح ليست دعوة لفارغ عاطل، وإنما لمشغول عامل، ومناط مدحه أنه تخلى عما هو فيه على جلاله وقدره إلى ما دعاه المولى إليه، قال تعالى مادحًا عباده: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦ – ٣٧]، ثم بعد انقضائها عد إلى ما كنت فيه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، فلكل وقت عمله؛ حيث لا يطغى عمل على عمل، ولا تضيع أولويات وقت في عمل آخر، إن الإسلام بذلك يقر أنك في عبادة قبل الصلاة، وفي الصلاة، وبعدها. إن النداء عليك وأنت في عمل الدنيا إلى عمل الآخرة، ثم الأمر بالعودة إلى عمل الدنيا ثانيًا هو استنقاذ للإنسان من الغفلة، وإرشاده إلى طريق المجاهدة.

إن نداء المؤذن: «حي على الفلاح» على رأس وقت كل صلاة تقدير من الإسلام لسعيك وجهدك، وتثمين منه لدورك، واحترام منه لعقلك، وعلم منه بأن همتك مصروفة إلى الفلاح لا ينكر عليك هذا، لكنه يدعوك بمقتضى همتك العالية، ورغبتك الكبيرة في الفوز والنجاح والفلاح إلى عين الفلاح ما دمت باحثًا عنه، فهو إقرار منه أنك في فلاح لكنه يدعوك إلى عينه الآن، ولذلك من لم يكن في فلاح وقت الصلاة قلما يستجيب لنداء الصلاة، إنما الأسرع استجابة والأشد حرصًا عليها من كان وقت النداء في فلاح، فلا تظنن أن الصلاة يأتي إليها العاطلون البطالون الكسالى الفارغون، لا. إنما يأتي إليها من كانوا في فلاح، ويرغبون في الزيادة منه.

وقد جعل الفلاح نتيجة للصلاة، أو جعل الصلاة مقدمة للفلاح لمن يبحث عن أسباب تحصيله، ويسعى إليه بما هو فيه، ولم يجعل الفلاح مرتبًا على الصلاة، بأن يقول: حي على الصلاة للفلاح، بل جعل الفلاح عين الدعوة إلى الصلاة، فجعل (حي على الفلاح) بدلًا من (حي على الصلاة)؛ لأن الصلاة عين الفلاح؛ لذا فصل بين الجملتين، وقد قصر القرآن الكريم الفلاح على أهل الصلاة في صدر سورة البقرة، وأخبر بفلاحهم في صدر سورة المؤمنون، لكنه فلاح مشروط بصلاة خاشعة كما أمر بها الله، لو أداها المرء على وجهها الذي أراده الله قبلت منه، ورُزق حبها والمداومة عليها.

وزاد في صلاة الفجر ترغيبًا: "(الصلاة خيرٌ من النوم) شحذًا للهمم، واستنهاضًا للعازم، وترغيبًا للكسول والنائم، فهي مناسبة للمقام، مطابقة لمقتضاه، فحين يسمعها الإنسان تتلهف نفسه إلى مقام الخيرية، ويؤثر الفاضل على المفضول.

وبعد الترغيب والخطاب الوجداني عاد مخاطبًا العقل، خاتمًا بما بدأ به؛ لتتكرر الصيحة التي توقظ من ظل في سباته، وتثبت من تيقظ، قال: (الله أكبر، الله أكبر)، ثم نهى الدعوة بتوقيع الداعي باسمه، ووصف الإله الحق، فقال: (لا إله إلا الله) لتكون آخر ما يقرع السمع هو الداعي الله جلَّ جلاله، ولو أنها دعوة لم يذكر فيها داعيها، ودلت قرائن العقل على صحتها وقبولها لكان لها من الإجلال والتوقير ما لها، فكيف والداعي معلوم؟! وكيف والداعي هو الله؟! حري أن ينهض لها كل عاقل، ويستجيب لها

كل راشد.

وحتى تتشبع نفس المسلم بهذه المعاني ندبه إلى الإصغاء إليها، وترديدها، فيسمع ويقول، فيزيد تدبره.

وفي الإقامة فوق ما مر "قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة" حجاج إقناعي بأنه لا وقت للتأخر أو التردد، فقد فات وقت هذا كله.

بعد هذا النداء الخاشع المفعم بوسائل التأثير وآليات الإقناع يتوجه المسلم إلى المسجد والسكينة تملؤه، والرضا يغلفه، والاطمئنان يصحبه عن يمينه وشماله، يتوجه وهو حاضر القلب، مالك لشعوره، ملأت الفرحة عليه أقطار نفسه.

خاتمة

انتهى البحث إلى عدد من النتائج منها:

١ ـ لم يكن مقصود الأذان إعلامًا بدخول وقت الصلاة فحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى كونه شعيرة من أعظم شعائر الإسلام، وعبادة يتعبد بها المسلم لربه، وذكرًا يحمل كثيرًا من مضامين الإسلام، ولا تقتصر رسالته على المسلم المصلي فقط، بل إنه يحمل رسالة إلى المسلم وغيره، وإلى المصلي وغيره.

٢ ـ لم يكن الأذان كطقوس الأمم من قبلنا في دعوتهم لعبادتهم، كالبوق، والناقوس، وإشعال النار، وإنما كان دعوة لها أهداف عقدية وشرعية، وكلمات تحمل ما تحمل من قيم الإسلام وحقائقه الكبرى، وتحمل ما يستميل المسلم على الاستجابة للنداء.

٣ ـ يسعى الشرع بتكرار الأذان خمس مرات في اليوم والليلة إلى ترسيخ مضامينه في نفوس المسلمين؛ ولذا كان الأذان بألفاظ مخصوصة، وأمر الشرع بأن ينادى به بأعلى الصوت في مكان عالٍ حتى يصل إلى أبعد مدى، وأن يكون المؤذن من أندى الناس صوتًا حتى ينصت له من يسمعه فيفهم، وإلا نفر الناس من السماع، فضاعت غايته، وضعف أثره، وأن يكون على هذا النحو من الترتيب والموالاة دون زيادة عليه، أو نقصان منه، أو خلل في ترتيبه.

٤ ـ إن كان الأذان في ظاهره دعوة عامة إلا أن مضامينه تومئ إلى أنه دعوة خاصة لأهل الإدراك الذين يدركون أن في قول المؤذن (الله أكبر) محذوفًا عامًّا، يخبر أن الله أكبر من الذوات والأعراض، والدنيا وما فيها، ويدركون أن الشهادة بالألوهية الحقة تقتضي عبادة وطاعة هذا الإله، ويدركون أن الشهادة لنبي الله ﷺ بالرسالة يلزم منها الاستجابة والامتثال لأمره.

٥ ـ إن الأذان دعوة خاصة لأهل النشاط والهمة، والحزم والعزم الذين يقبلون على الصلاة إقبال فارس على جواده، دعوة خاصة لأهل النجاح والفلاح الذي يرغبون في تحصيله، ويجدون في سبيل ذلك، ويتلمسون إليه طرقه وأسبابه.

٦ ـ بدا التناسب واضحًا بين الأذان ومقصوده من حيث اختيار الألفاظ وترتيبها، وتركيب الجمل وترتيبها، ليحمل كل ذلك دلائل تتجاوز حد الإعلام بدخول وقت الصلاة يفقهها صاحب الوعي الرشيد.

٧ ـ حمل الأذان كثيرًا من المعاني التي أراد إظهارها، وتقريرها في نفوس الناس، وهي: إثبات الكبرياء لله تعالى، والشهادة له بالوحدانية، والشهادة لرسول الله بالرسالة، وبيان أن الصلاة فلاح وفوز.

٨ ـ بني الأذان على أسلوب الحقيقة دون المجاز؛ لأنه يقرر حقائق عقدية لا مجال فيها لتأويلات المجاز، واحتمالية فهم بعض المتلقين دون بعض.

٩ ـ تنوعت جمل الأذان بين الجملة الخبرية التي تقرر الواقع، وتخبر به، والجمل الإنشائية التي تحث المسلمين، وتستنهضهم لتلبية النداء.

١٠ ـ كان التكرار أبرز الألوان البلاغية في الأذان، وسره الإلحاح على المعاني، وإرادة ترسيخها في نفوس المتلقين.

١١ ـ بنيت جمل الأذان على الفصل، فلم تعطف فيه جملة على أختها؛ لتكون كل جملة قائمة برأسها في حمل مضمونها العقدي، وكأنها أبواب عقدية، كل باب تحته مسائله التي يستقل بها.

١٢ ـ خلا الأذان من مظاهر التوكيد في بناء جمله، إلا من التكرار بين الجمل؛ وذلك لأن جمله تحمل قضايا الإسلام الكبرى التي لا تخفى على أهل الإيمان، ولا يشك فيها شاك أو يرتاب.

١٣ ـ وجوب ولوج الدرس البلاغي لميادين العبادات القولية التي يتعبد بها المسلم حتى يستجلي أسرارها، ويبين عن خفاياها، فيستشعر المسلم ما يقول، ويفهم عن الله مراده فيما أمر به.

١٤ ـ أساليب العربية لها عطاءات ومذاق تخلعه على النظم، لا يلتبس عطاء أسلوب بأسلوب، ولا يفضل أسلوب أسلوبًا، وإنما المقامات هي التي تستدعي هذا أو ذاك.

١٥ . التناغم بين المقام والمقتضى، فالمقام يقتضي، والمقتضى يلبي ويوفي، فتكون المطابقة التي يشيع من جنباتها دلالات وجمال.

١٦ . الدرس البلاغي التطبيقي قادر على إمداد البلاغية النظرية بما لا تعرفه من أسرار، فكل بحث بلاغي على نص يستكشف من بلاغة هذا اللسان ما لم نعهده من قبل.

١٧ . نبه البحث على وجوب التفات الدرس البلاغي إلى عبادات المسلمين القولية ليبرز ما فيها من حكم وقيم ومعانٍ.

وأخيرًا فإني أحمد الله حمدًا لا منتهى له؛ إذ هداني لهذه الفكرة النفيسة، وأسأله لهذا البحث قبولًا وذيوعًا بين المسلمين وانتشارًا كانتشار الأذان، وألا يحرمني أجر المجتهدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥مـ.

. إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين (هو حاشية على فتح المعين بشرح قرة العين بمهمات الدين)، أبو بكر (المشهور بالبكري) عثمان بن محمد شطا الدمياطي الشافعي (المتوفى: ١٣١٠هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوريع، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.

. الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: ٨٠٤هـ)، المحقق: عبد العزيز بن أحمد بن محمد المشيقح، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

ـ الإيذان بفتح أسرار التشهد والأذان، للإمام البقاعي (المتوفى: ٨٨٥ هـ)، دراسة وتحقيق: مجدي فتحي السيد، الناشر: مكتبة الفؤاد، توزيع: مكتبة الرشد، الرياض، ط: الأولى، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥ م.

. الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني، الناشر: دار إحياء العلوم – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.

ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (المتوفى: ٥٨٧هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

ـ البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، (ثم صوَّرته دار المعرفة، بيروت، لبنان - وبنفس ترقيم الصفحات).

. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

ـ تحرير ألفاظ التنبيه، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المحقق: عبد الغني الدقر، الناشر: دار القلم – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

ـ التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر ابن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

. تفسير أسماء الله الحسنى، المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر ابن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبيد بن علي العبيد، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد ١١٢ – السنة ٣٣ – ١٤٢١هـ.

. التفسير الحديث، دروزة محمد عزت، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، الطبعة: ١٣٨٣ هـ.

ـ التكرار بلاغة، د/ إبراهيم الخولي، دار الأدب الإسلامي، ط/ الثانية، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤م.

. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

. حَاشِيةُ الشِّـهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايـةُ القَاضِي وكِفَايـةُ الرَّاضِي

عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: ١٠٦٩هـ)، دار النشر: دار صادر – بيروت.

. حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، أبو الحسن، علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي (نسبة إلى بني عدي، بالقرب من منفلوط) (المتوفى: ١١٨٩هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

ـ دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، ت (١٤٠٤هـ)، دار الحديث – القاهرة.

. درر الحكام شرح غرر الأحكام، محمد بن فرامرز بن علي الشهير بملا – أو منلا أو المولى – خسرو (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار إحياء الكتب العربية.

ـ دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات، منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (المتوفى: ١٠٥١هـ)، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

. دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

. دلالات التراكيب، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط/ الثالثة، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م.

ـ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، أبو فهر، محمود محمد شاكر، الناشر: مكتبة المدني، سنة النشر: ١٤٠٧ – ١٩٨٧م.

. الذخيرة، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: ٦٨٤هـ)، المحقق: جزء ١، ٨، ١٣: محمد حجي، جزء ٢، ٦: سعيد أعراب، جزء ٣ – ٥، ٧، ٩ – ١٢: محمد بو خبزة، الناشر: دار الغرب الإسلامي– بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م.

. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

. شرح سنن أبي داود، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)، المحقق: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.

ـ شرح سنن ابن ماجه، المؤلف: السيوطي، عبد الغني، فخر الحسن الدهلوي، الناشر: قديمي كتب خانة – كراتشي.

ـ شرح مختصر خليل، للخرشي، محمد بن عبد الله الخرشي المالكي أبو عبد الله (المتوفى: ١١٠١هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة – بيروت.

. صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم/ محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

. صحيح مسلم = المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ ، مسلم ابن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

. عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (المتوفى: ١٣٢٩هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية

– بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ.

. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ.

. الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، محمد بن علي ابن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ)، المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ هـ –٢٠٠٥ م.

ـ الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

. كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ.

. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ.

ـ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، عدد الأجزاء / ١، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري.

ـ لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

ـ لطائف الإشارات = تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، المحقق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.

ـ المبسوط، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ)، دراسة وتحقيق: خليل محي الدين الميس، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: ٦٣٧هـ)، المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت، عام النشر: ١٤٢٠ هـ.

ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م.

ـ مسند الإمام الشافعي، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، رتبه على الأبواب الفقهية: محمد عابد السندي، عرف للكتاب وترجم للمؤلف: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، تولى نشره وتصحيحه ومراجعة أصوله على نسختين مخطوطتين: السيد يوسف علي الزواوي الحسني، السيد عزت العطار الحسيني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، عام النشر: ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١م.

ـ مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي شهرة، الرحيباني مولدًا ثم الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ١٢٤٣هـ)، الناشر: المكتب

الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

ـ مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

ـ المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: محمد سيد كيلاني، الناشر: دار المعرفة، مكان النشر لبنان.

ـ من أسرار حروف الجر، د محمد الأمين الخضري، ط/ مكتبة وهبة، ط/ الثانية، ١٤٣٧ هـ، ٢٠١٥ م.

. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ هـ.

. النحو الوافي، عباس حسن (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، الناشر: دار المعارف، الطبعة: الخامسة عشرة.

. نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة ابن شهاب الدين الرملي الشهير بالشافعي الصغير، المتوفى: ١٠٠٤هـ، الناشر: دار الفكر للطباعة، سنة النشر ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، مكان النشر: بيروت.

. نيل الأوطار، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

. الواو ومواقعها في النظم القرآني، د/ محمد الأمين الخضري، ط/ مكتبة وهبة، ط/ الأولى، ١٤٣٦ هـ، ٢٠١٥ م.